
آرثر كونان دويل
عصابة الأربعة

عِصَابَةُ الأَربَعَة

آرثر كونان دويل

عِصَابَة الأربعة

شارلوك هولمز

السلسلة البوليسية

THE SIGN OF FOUR

by

SIR ARTHUR CONAN DOYLE
(SHERLOCK HOLMES)

ترجمة

سمية فلّو عبود

ARABIC EDITION 1993

P.O.Box:7038 - Limassol
CYPRUS
P.O.Box:113/5796 -Beirut
LEBANON

ISBN 1-85513-149-8

الطبعة الأولى، أيار/ مايو ١٩٩٣
الغلاف، تصميم رملة شماعة
رسوم شيفورن كوريفان

المحتويات

-١-

علم الاستنتاج

تناول شرلوك هولمز الزجاجة عن رفّ المدفأة، وحقنة المخدر من محفظته الجلدية الفاخرة وبدأ يعد الإبرة الدقيقة بأصابعه الطويلة البيضاء والمتوترة ثم رفع طرف كمّ قميصه وتأمل لبعض الوقت في ساعده القويّ ومعصمه حيث تنتشر الثقوب العديدة وبعد امعان شديد اكتشف موقعاً صالحاً فغرز راس الإبرة الحاد وضغط على الكبّاس الصغير، ثم ارتاح في مقعده المخمليّ وهو يطلق تنهيدة ارتياح طويلة.

منذ شهور عديدة وأنا اشاهد هذه العملية ثلاث مرات في اليوم، لكن الألفة على مشاهدتها لم تحملني على القبول بها، بل على العكس من ذلك، كنت أزداد تضايقاً من هذا المنظر يوماً بعد يوم وكان ضميري يؤنبني ليلاً لأنني كنت افتقد الشجاعة على الاحتجاج العلني. ومرة بعد أخرى كنت أنوي ان أبوح بما في قلبي حول هذا الموضوع؛ لكنني وجدت في سلوك رفيقي البارد واللامبالي ما يجعله آخر رجل يجرؤ المرء على مفاتحته، في موضوع يمسّ حرية التصرّف. ذلك ان قدراته العظيمة، وأسلوبه الاستاذي، واختباري لمزاياه العديدة والرائعة، كانت تجعلني أخجل وأتردد في معارضته.

لكنني في تلك الأمسية، وذلك إما بفضل المشروب الذي تناولته

مع الغداء أو لغضبي المتزايد الناتج عن التفكير بتصرفاته، شعرت فجأة انني لم أعد أحتمل الأمر.

سألته «ماذا تناولت اليوم، المورفين أم الكوكايين؟».

رفع عينيه بفتور عن المجلّد القديم المطبوع بالحرف العريض، وقال: «إنه الكوكايين. محلول بنسبة سبعة في المئة. هل ترغب في تجربته؟».

أجبته بفظاظة: «لا، أبداً، إنني لم أتعافَ بعد من حملة افغانستان، ولا أنوي ان أضيف إلى حالتي مزيداً من التوتر».

ابتسم لعنف الاجابة وقال: «ربما تكون على حق، يا واتسون، اعتقد ان تأثيرها (المخدرات) على الجسم سيء. لكنني أجدها مثيرة للتعالي ومنقيّة للعقل لدرجة ان آثارها الجانبية تصبح اموراً بلا اهمية».

قلت بصدق: «لكن عليك ان تفكّر في الأمر! إنتبه للخسارة! قد ينشط عقلك وتستيقظ حواسك، كما تقول، لكن هذه العملية مَرَضية وتؤدي إلى تغيّر متزايد في الانسجة وقد تترك في النهاية ضعفاً دائماً. انت تعرف أيضاً ردّة الفعل العصبية التي تعاني منها. بالتأكيد لا يستحق الأمر كل هذا العناء. لماذا، ومن أجل لذة عابرة، تجازف بقدراتك الهائلة التي وُهِبْتها؟ تذكر انني لا اخاطبك كزميل فقط بل كطبيب يتحدث إلى شخص يعتبر نفسه مسؤولاً عن صحته».

لم يبدُ متضايقاً، بل، على العكس من ذلك، جمع يديه والقى بمرفقيْه على ذراعيْ المقعد، كشخص يستمتع بالحديث ثم قال: «عقلي يرفض حالة الركود. أعطني مشاكل، اعطني عملاً، اعطني

الكتابة بالشيفرة الأكثر غموضاً، والتحليل الأكثر تعقيداً، لأشعر انني في وضـع طبيعي. إنني أشمئز من الروتين الممل وأتوق إلى النشـاط العقـلاني لذلك اختـرت مهنتي المتميـزة، أو بالأحرى أوجدتها، لأنني الوحيد الذي أمارسها في العالم»

قلت وأنا أرفع حاجبيّ: «المفتش الوحيد الذي ليس موظفاً؟».

أجـابني قائلاً. «المفتش المستشار الوحيد الذي ليس موظفاً، انني أقوم مقام أعلى وأهم محكمة استئناف في مجال الاستقصاء. حين يصبح «غريغسون» أو «ليسترايد» أو «أتلني جونز» عاجزين عن فهم موضوع ما ـ وهذا بالمناسبة ما يحدث غالباً ـ يوضع الأمر أمـامي. أقـوم بفحص المعـطيـات كخبـير، وأدلي برأيي كرجـل اختصاص. وأنا لا أطالب بالثناء على عملي هذا. لا يظهر اسمي في أية صـحيفـة. العمـل نفسه، والسعادة في وجود مجال لقدراتي الخاصة، هما أهم مكافأة لي. وأنت بنفسك قد تعرفت إلى اسلوبي في العمل في قضية (جيفرسون هوب)».

قلت بحرارة: «أجل، بالفعل لم يسبق لأمر ان أذهلني إلى هذا الحـد. لقـد دوّنت الأحداث في كتيّب صغير، ووضعت له عنواناً غريباً: (دراسة في اللون القرمزيّ)».

هزّ رأسـه بحزن وقال: «لقد اطّلعت عليه. واقول لك بصراحة انني لا أستطيع ان أهنئك. إن الكشف عن جرم ما يجب ان يكون علماً دقيقاً والبحث يجب ان يتم بأسلوب هادىء بعيد عن العاطفة، لقـد حاولت ان تضفي هالة من الرومـانسية على القضية، وهذا يجعـل تأليف قصـة حب يسـاوي عنـدك الخـوض في الفرضية الخامسة لإقليدس».

قلت معترضاً: «لكن العنصر الرومانسي كان حاضراً. أنا لا أتلاعب بالوقائع».

«بعض الوقائع يجب طمسها أو على الأقل تقاس بنسبة متساوية مع غيرها. المسألة الوحيدة في القضية التي تستحق أن يشار إليها كانت التحليل المثير للنتائج والمسببات الذي نجحت في إنجازه».

تضايقت من انتقاده لعمل وُضع خصيصاً إرضاءً له. واعترف أيضاً انني انزعجت من انانيته التي تطلب ان يكون كل سطر في الكرّاس مكرّساً لمآثره.

أكثر من مرة خلال السنوات التي عشت فيها معه في «بايكر ستريت» كنت ألاحظ ان في أسلوب رفيقي الهادىء والمنطقي بعض الغرور، لكنني لم أرد عليه، بل جلست أعالج الجرح في رجلي. كنت قد اصبت فيها برصاصة منذ مدة، ومع انها لم تكن تمنعني من المشي إلّا انها كانت تؤلمني بشكل مزعج عندما يتغيّر الطقس

قال هولمز بعد قليل، وهو يملأ غليونه القديم المصنوع من جذور الورد البرّي: «لقد امتد نشاطي مؤخراً إلى القارة الأوروبية، طلب «فرانسوا لو فيلارد» منذ اسبوع استشارتي، وكما تعلم فإنه وصل إلى رتبة عالية في جهاز التفتيش الفرنسي. إنه يتمتع بموهبة أجداده «السلتيون»(*) الذين تميزوا بحدسهم السريع، لكنه ينقصه الخوض في مجال المعرفة الدقيقة وهذا أساسي بالنسبة للتقدم في مجاله.

(*) السلتي احد افراد عرق هندي اوروبي قطن فيما مضى اجزاء واسعة من اوروبا الغربية

كانت القضيـة تدور حول وصيّـة تتضمن عدة عناصر مثيرة للاهتمام، شرحت له ملابسات قضيتين مشابهتين، قضية «ريغا» عام ١٨٥٧ والأخرى التي حدثت في سانت لويس عام ١٨٧١، وهذا ساعـده على ايجاد الحل الفعلي لقضيته هذه هي الرسالة التي وصلتني منه هذا الصباح والتي يعبّر فيها عن شكره لمساعدتي.» وكانت مجرد ورقة مطوية مأخوذة من دفتر أجنبي، قرأتها بسرعة متـوقفـاً عند عدد من عبارات الإعجاب المتلاحقة. مدهش، عمل رائع، انتصار حقيقي، وكلها تدل على اعجاب صادق من المفتش الفرنسي.

قلت: «إنه يتكلم وكأنه تلميذ يخاطب استاذه».

اجاب شرلوك هولمز بلا مبالاة: «إنه يبالغ في تقدير مساعدتي له لديه مواهب يستحق الثناء عليها. إنه يتمتع باثنتين من أصل ثلاث مميزات أساسية بالنسبة للمفتش المثالي. لديه القدرة على الملاحظة والقدرة على الاستنتاج. لا تنقصه سوى المعرفة، وهذه قد تأتي مع الوقت. إنه الآن يقوم بترجمة أعمالي إلى اللغة الفرنسية».

ـ «أعمالك؟».

ردّ ضاحكـاً: «ألم تكن تعلم بذلك؟ أجـل، لقـد قمت بتـأليف مجموعة من الدراسات. كلها تتعلق بموضوعات تقنية. هذه مثلاً دراسة حول «التمييز بين رماد أنواع التبغ المختلفة»، وفيها أعدّد مئـة وأربعـين نوعاً من تبغ السجائر وتبغ الغليون، وقد أرفقتها بلوحـات ملوّنة تظهر الفرق في الرماد. هذه مسألة تبرز دائماً في المحاكمات الجنائية، وهي في بعض الأحيان ذات أهمية بالغة في حل اللغز. إذا استطعت مثلاً ان تثبت ان الجريمة ارتكبها رجل يدخّن

تبغاً هندياً (لانكاه) فإن هذا بالتأكيد سيضيّق نطاق بحثك. وبالنسبة للعين الخبيرة هناك فارق كبير بين الرماد الأسود لنبتة التريشينوبولي وبين الرماد الأبيض الخفيف لنبتة «عين الطائر»(*) كالفارق بين رماد الملفوف ورماد البطاطا».

قلت: «أنت تتمتع بعبقرية فذة في دراسة التفاصيل».

- «أنا أقدر أهميتها. وهذه دراسة لي، حول آثار الأقدام، وهي تضم بعض الملاحظات حول استخدام الجص الباريسي للمحافظة على الأثر، وهذه أيضاً دراسة صغيرة ومثيرة حول أثر المهنة على شكل اليد وفيها رسومات لأيدي حفارين، وبحارة وقاطعي فلّين، ومنضّدي أحرف في المطابع، وحائكين وصاقلي الماس. وهذا موضوع له أهمية بالغة بالنسبة للمفتش العلمي - خاصة في القضايا التي لا يتم فيها طلب الجثث، أو في اكتشاف ماضي المجرمين، لكن يبدو انني أتعبك بالحديث عن هوايتي».

اجبت بصدق: «لا، على الاطلاق. هذا أمر في غاية الأهمية بالنسبة لي، خاصة بعد ان اتيحت لي الفرصة بمتابعة تطبيقك العملي لكل ذلك، لكنك أشرت منذ قليل إلى المراقبة والاستنتاج، لا شك ان كل عمل منهما يتضمن الآخر».

أجاب وهو يسند ظهره تماماً وينفث من غليونه دوائر زرقاء كثيفة: «نادراً ما يكون هذا صحيحاً. إن المراقبة مثلاً تقول لي انك كنت في مكتب البريد في شارع «ويغمور» هذا الصباح، لكن الاستنتاج يوحي إليّ بأنك خلال وجودك هناك قمت بإرسال برقية».

(*) عين الطائر نبات ذو زهرات صغيرة مدوّرة.

قلت: «صحيح! صحيح في الاستنتاجين! لكنني أقر بأنني لا اعـرف كيف توصّلت إلى ذلك. لقد فعلت ذلك برغبة مفاجئة، ولم اذكرها لأحد».

قال وهـو يضحـك ضحكـة خافتـة لدهشتي: «الأمر في غاية البساطة. إنه بسيط لدرجة انه ليس بحاجة لشرح؛ لكن ومع ذلك فإنه مفيد في تحديد معالم المراقبة والاستنتاج. المراقبة تقول ان لديـك كتلة صغيرة حمراء ملتصقة بباطن حذائك. ومقابل مكتب شارع «ويغمور» ازيل الرصيف والمكان مغطى بالتراب الذي وضـع بطريقة يصعب فيها عدم المشي عليه عند دخول المكتب. التراب له هذا اللون الأحمر الفريد الذي لا يوجد، حسب ما اعلم، في اي مكان آخر في الجوار. هذا دور المراقبة. أما الباقي فإنه استنتاج».

ـ «كيف إذاً توصلت إلى استنتاج البرقية؟».

ـ «لقد عرفت بالطبع انك لم تكتب رسالة منذ ان جلست بجوارك طوال فتـرة الصبـاح، كمـا أرى في مكتبـك المفتوح ورق طوابع ومجموعة من البطاقات. ما الذي يجعلك تذهب إلى مكتب البريد إذاً سوى الرغبة بإرسال برقية؟ إحذف سائر العوامل وما يتبقى هو الحقيقة».

اجبت بعد تأمل وجيز: «والحالة هذه، يبدو الأمر كذلك فالمسألة كما تقول في غاية البساطة، ولكن هل تعتبرني وقحاً إذا حاولت ان اختبر نظرياتك في إطار اشد تعقيداً؟».

أجاب: «على العكس، قد يمنعني ذلك من تناول جرعة ثانية من الكوكايين، سأكون في غاية السرور إذا سمحت لي بالنظر في مشكلتك».

ـ «سمعتك تقول إنه من الصعب على الإنسان ان يمتلك شيئاً يستخدمه يومياً ولا يترك عليه علامات مميزة يستطيع ان يتبيّنها المراقب المدرب. وفي حوزتي الآن ساعة وصلتني مؤخراً، هل تستطيع ان تعطيني صورة عن شخصية أو تصرفات مالكها الأخير؟». ثم ناولته الساعة والإحساس بالمتعة يغمر قلبي، لأن الاختبار برأيي كان مستحيلاً، وأنا أردت منه ان يكون درساً للأسلوب الدوغمائي الذي كان يتبعه غالباً.

تناول الساعة بيده وأخذ يحدق في قرصها المدرّج، فتحها من الخلف وأخذ يتفحص اجزاءها، بالعين المجردة أولاً، ثم بالعدسة المكبرة. لم أتمالك من الابتسام حيال علامات الخيبة التي بدت على وجهه وهو يغلق العلبة ويعيد الساعة إليّ.

قال: «يصعب العثور على أية معلومات، الساعة تمّ تنظيفها مؤخراً وهذا لا يمكنني من التوصل إلى حقائق واضحة».

أجبته قائلاً: «أنت على حق. لقد تمّ تنظيفها قبل إرسالها إليّ». كنت في داخلي أتهم رفيقي بأنه يستند إلى حجة واهنة وعقيمة يغطي بها فشله. ولكنه لم يكن كذلك. فأية معلومات يتوقع ان يجدها على ساعة منظّفة؟».

أضاف وهو يحدق في السقف بعينين حالمتين باهتتين: «مع انه ليس بالمستوى المطلوب فإن بحثي لم يكن بلا جدوى. استناداً إلى ما قلته، أعتقد ان الساعة كانت في حوزة أخيك الأكبر، الذي ورثها عن أبيه».

ـ «استنتجت ذلك دون شك من حرفيْ هـ. و. المحفورين على الجهة الخلفية».

ـ أجـل، حرف و. يشـير إلى عائلتـك. تاريخ الساعة يعود إلى خمسـين سنـة تقريباً، وللحرفين المحفورين التاريخ نفسه. وقد صنعت إذاً قبل جيل. والمجوهرات تنتقل عادة إلى الإبن الأكبر، وهو على الأرجح يحمل اسم والده، لقد توفي والدك، على ما أذكر، منذ عدة سنوات. فالساعة إذاً كانت مع أخيك الأكبر».

قلت: «هذا صحيح حتى الآن. هل لديك شيء آخر؟».

ـ «لم يكن رجلاً نظيفاً. كان شديد الاهمال وغير مرتّب كانت لديه امكانيات جيدة، لكنه لم يستغل الفرص المتاحة له، عاش فترة في الفقـر وأوقـات قصيرة من الرخاء، وأخيراً مات بعد إدمانه شرب الخمرة. هذا كل ما أستطيع قوله».

قفزت من مقعدي وأخذت أمشي في الغرفة متضايقاً وأنا أعرج، وقلبي ممتلىء بالمرارة.

قلت له: «ليس هذا التصرف لائقاً بك يا هولز. لم أكن اتصور انك تصل إلى هذا المستوى، لقد قمت بتحقيقات حول حياة أخي التعيسة، وأنت الآن تدّعي بأنك استنتجت هذه المعلومات بطريقة ما. لا تتوقع مني ان أصدق بأنك قرأت كل هذا في ساعته القديمة! هذا تصرّف غير سليم وبكل صراحة أقول بأن فيه شيئاً من المبالغة».

قال برقة: «أيها الطبيب العزيز، أرجو ان تقبل اعتذاري، النظر في مسـألة يجعلهـا موضـوعيـة بالنسبـة لي، ولقـد نسيت مدى خصوصية هذا الأمر والألم الذي قد يسببه لك. أؤكد لك بأنني لم أكن اعلم بأن لديك أخاً قبل ان تسلمني الساعة».

ـ «إذاً كيف تمكنت من التـوصـل إلى كل هذه الوقائع؟ إنها صحيحة تماماً وبكل التفاصيل».

ـ «هذا حظ جيد. انا استطيع ان اقول ما هو محتمل فقط. لم اكن اتوقع ابداً ان تكون نتائجي بهذه الدقة».

ـ «لكن الامر لم يكن مجرد تكهّن».

ـ «لا، لا، انـا لا اتكهن ابداً. إنها عادة سيئة ـ تدمر المقدرة العقلية. قد يبدو الأمر غريباً في نظرك وذلك لأنك لم تتبع تسلسل افكـاري ولم تراقب الوقـائـع الصغـيرة التي قد ترتكـز إليهـا الاستنتاجات البالغة الأهمية، لقد بدات مثلاً بأن اخاك كان مهملاً، عندما تشاهد القسم الأسفل من علبة الساعة تلاحظ بأنها منبعجة في نقطتين وعليها علامات كثيرة مما يدل على انها كانت توضع في الجيب مع أدوات حادة كالنقود المعدنية أو المفاتيح بالتأكيد ليس عملاً فذاً الاستنتاج بأن الرجل الذي يلقي بساعة ثمنها خمسون جنيهـاً على هذا النحو هو رجل مهمل. وكذلك لم يكن الاستدلال صعباً بأن رجلاً يرث قطعة بهذه القيمة لا بد ان يكون مرتاحاً من نواحٍ أخرى».

احنيت رأسي تعبيراً عن متابعتي لكلامه.

«من عادة المرابين في انكلترا انهم حين يرهنون ساعة يحفرون عليها رقم إيداع بواسطة «رأس دبوس داخل الغطاء. هذا افضل من إلصـاق ورقة عليها حيث يمكن ان يضيع الرقم او يُنقل إلى وديعة أخرى. هناك أربعة من هذه الأرقام على الأقل اراها بواسطة العدسة داخل الغطاء. والاستنتاج الأول ـ ان اخاك كان غالباً في

ضائقة مالية. والاستنتاج الثاني ـ انه كان يعرف فترات عابرة من الرخاء، وإلّا لما تمكن من استرداد ساعته واخيراً اطلب منك ان تلقي نظرة على القرص الداخلي، الذي يحتوي على موضع المفتاح، انظر إلى ألاف الخدوش حول الثقب هذه الخدوش سببها انزلاق المفتاح. هل يقوم رجل بكامل وعيه بهذا؟ ولكنك، بالمقابل لا ترى ساعة رجل سكّير دون هذه الخدوش إنه يعبثها ليلاً تاركاً هذه الاثار بيده المرتجفة . اين الغموض في كل هذا؟».

اجبته قائلاً «الأمر واضح تماماً. وانا اسف لأنني اسات إليك. كان يجدر بي ان اكون اكثر ثقة بمقدرتك الفذّة، هل استطيع ان اسألك ما إذا كانت لديك اية قضية في الوقت الحاضر؟».

ـ «لا. ولاجل ذلك اتناول الكوكايين لا استطيع ان اعيش بدون منشّط ذهني ما الذي يستحق ان نعيش من اجله اكثر منه؟ قف بقرب النافذة، هل سبق لك ورأيت العالم حزيناً ومغماً وعديم الجدوى إلى هذا الحد؟ اترى الضباب الاصفر يلتف في دوامة فوق الشارع ويتسرب بين البيوت المظلمة هل هناك ما هو اكثر ابتذالاً ومادية؟ ما فائدة ان نمتلك القدرات، ايها الطبيب، إذا لم يتوفر لنا الحقل الذي نمارسها فيه؟ الجريمة مألوفة وشائعة والوجود شيء مألوف، والاشياء المألوفة هي وحدها التي تكتسب اهمية وفاعلية في هذا العالم».

هممت بالرد على اقواله العنيفة، حين قُرع الباب، ودخلت المسؤولة عن المنزل، وهي تحمل بطاقة على طبق نحاسي

قالت تخاطب رفيقي «سيدة شابة ترغب في مقابلتك، يا سيدي»

قرأ البطاقة وقال: «الآنسة ماري موريستان. لا أذكر هذا الاسم. دعيها تتفضل يا سيدة هدسون لا تذهب، يا دكتور، أفضل ان تبقى».

- ٣ -

عرض القضية

دخلت الآنسة موريستان الغرفة بخطوة واثقة وهدوء بارز. كانت شقراء، صغيرة البنية، يدل قفازاها وثوبها على أناقة واضحة. لكن ثوبها غامق بلون الصوف الطبيعي بعيد عن الزخرفة وبسيط وغير مدروز في أسفل التنورة مما يشير إلى إمكانياتها المادية المحدودة. وقد وضعت على رأسها قبعة ضيقة زيّنتها بريشة دقيقة على جانبها، ولم يكن وجهها عادياً ولم يكن جميلاً في الوقت نفسه، لكن تعابيرها عذبة ولطيفة، وفي عينيها الزرقاوين الواسعتين جاذبية خاصة.

من خلال تجربتي مع النساء، والتي شملت العديد من الدول وثلاث قارات لم يسبق لي ان شاهدت وجهاً يوحي بهذا القدر من الرقّة والصفاء. لاحظت وهي تجلس على المقعد الذي أشار إليها به شرلوك هولمز، ان شفتيها ترتجفان وان يدها ترتعش باضطراب شديد.

قالت: «لقد قصدتك يا سيد هولمز لأنك ساعدت مرة السيدة «سيسيل فورستر» التي أعمل عندها، في إيجاد حل لمسألة عائلية بسيطة. كانت متأثرة جداً بلطفك ومهارتك».

قال وهو يفكر قليلاً مردداً الإسم: «السيدة سيسيل فورستر،

أعتقد انني لم أفدها كثيراً. كانت القضية على ما اذكر في غاية البساطة».

ـ «لكنها لم تكن تعتقد ذلك. وانت لن تستطيع على الأقل ان تطلق هذه الصفة على قضيتي. لا يمكنني ان اتخيل وضعاً اكثر غرابة أو غموضاً مما انا فيه الآن».

فرك هولمز يديه والتمعت عيناه، إنحنى قليلاً وبدت علامات التركيز على ملامح وجهه الحادة، ثم قال بصوت واثق: «إعرضي قضيتك».

شعرت ان وجودي لا مبرر له، فقلت وانا انهض من مقعدي: «أرجو ان تسمحا لي بالخروج».

دُهشت حين رفعت السيدة الشابة يدها لتمنعني من ذلك، وقالت: «لو يبقى صديقك معنا، فإنه سيقدم لي خدمة لا تقدّر».

عدت إلى مقعدي، وتابعت قائلة: «باختصار هذه هي الوقائع: كان والدي ملازماً في كتيبة في الهند؛ وقد أرسلني إلى انكلترا وانا لا ازال طفلة. كانت امي قد فارقت الحياة، ولم يكن عندنا اقرباء في انكلترا. فوضعت في مأوى مريح في ادينبرا، ومكثت في تلك المؤسسة حتى بلغت السابعة عشرة.

سنة ١٨٧٨ كان والدي قد رُقّي إلى رتبة كابتن في كتيبته، فحصل على اجازة لمدة سنة وعاد إلى الوطن. أرسل إليَّ برقية من لندن يخبرني فيها بوصوله ويطلب مني الحضور إليه، وأعطاني عنوان فندق لانغهام. كانت رسالته، كما اذكر، تفيض عطفاً وحباً. عند وصولي إلى لندن قصدت الفندق فقيل لي ان الكابتن مورستان

نزيل فيه، لكنه خرج مساء الليلة الماضية ولم يعد انتظرت طوال اليوم دون ان أتلقى منه خبراً. في المساء، اتصلت بناء على نصيحة مديـر الفنـدق بالشرطة، وفي صبـاح اليوم التالي نشرنا الخبر في الصحف. محاولاتنا لم تصل بنا إلى نتيجة، ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن لم أعد أعرف شيئاً عن والدي المسكين. عاد إلى الوطن وقلبه يأمل بالاستقرار والراحة وبدلاً من ذلك...».

وضعت يدها على حنجرتها، وكتم صوتها بكاء صامت. سألها هولمز وهو يفتح دفتر ملاحظاته: «وتاريخ ذلك؟».

ـ «لقد اختفى يوم الثالث من شهر كانون الأول عام ١٨٧٨ ـ أي منذ عشر سنوات تقريباً».

ـ «وأمتعته؟».

ـ «بقيت في الفندق. لم يكن فيها ما يمكن ان يستخدم كدليل: ثياب ومجموعة كتب وكمية لا بأس بها من التحف الغريبة التي أحضرها معه من جزر أندمان. كان أحد الضباط المسؤولين عن حرس السجن هناك».

ـ «هل كان لديه أصدقاء في المدينة؟».

ـ «لا أعـرف سوى صديق واحـد هو الرائد شولتو، وكان في الكتيبـة نفسهـا، كتيبة المشاة الرابعة والثلاثين في بومباي. كان الرائد متقاعداً ويسكن في نورروود. اتصلنا به بالطبع، لكنه لم يكن يعلم بأن زميله عاد إلى انكلترا».

قال هولمز معلّقاً: «هذه قضية فريدة».

ـ «لم أصف لك بعد الجزء الأكثر غرابة. منذ حوالي ست سنوات

- وعلى سبيل الدقة في الرابع من شهر أيار (مايو) عام ١٨٨٢ - قرأت اعلاناً في جريدة «التايمز» يطلب عنوان الآنسة ماري مورستان، ويشير الإعلان إلى مصلحتها في ذلك. لم يكن في الإعلان اسم أو عنوان. كنت في تلك الفترة قد بدأت بالعمل عند عائلة السيدة سيسيل فورستر كمربية أطفال. وبناء على نصيحة السيدة فورستر ارسلت بعنواني إلى الجريدة وتمّ نشره في زاوية الإعلانات. وفي اليوم نفسه وصلتني بواسطة البريد علبة كرتونية صغيرة تحمل عنواني، وحين فتحتها وجدت في داخلها لؤلؤة كبيرة برّاقة. لم يكن معها أية ورقة توضح لي الأمر. ومنذ ذلك الحين وفي التاريخ نفسه تصلني كل عام علبة مماثلة، تحتوي على لؤلؤة مماثلة دون أية اشارة تدلّني على المرسل. أحد الخبراء قال لي ان هذه اللآلىء نادرة وثمينة. وسترى بنفسك انها رائعة».

وفتحت امامي علبة رأيت في داخلها ست لآلىء لم يسبق ان شاهدت بجمالها من قبل.

قال شرلوك هولمز: «حديثك مهمّ جداً، هل حدث شيء آخر؟».

- «أجل، هو ما حدث اليوم. وأنا قصدتك من أجله. هذا الصباح وصلتني هذه الرسالة، وأود لو تقرأها بنفسك».

قال هولمز وهو يتناول منها الرسالة: «شكراً. أرجوك، المغلّف أيضاً. علامة البريد تشير إلى مدينة لندن، والتاريخ ٧ تموز. هناك بصمة إبهام على زاوية المغلّف، لا شك انها لساعي البريد. الورق من صنف ممتاز، ثمن مجموعة من هذه المغلفات هو ستة بنسات. رجل مميز في اختيار ما يستخدمه للكتابة. لا عنوان.

«كوني عند العمود الثالث من الجهة اليسرى خارج مسرح ليسيوم هذه الليلة عند الساعة السابعة. إذا كنتِ في ريبة أحضري معك صديقين. أنت امرأة مظلومة وسوف يُرفع الظلم عنكِ، لا تحضري معك الشرطة، إذا فعلت ذلك، يضيع كل شيء، صديقك المجهول».

حسناً، هذا بالتأكيد لغز مثير! «ماذا تنوين ان تفعلي يا آنسة مورستان».

ـ «هذا بالتحديد ما أود ان استشيرك به».

ـ «إذاً سوف نذهب بالتأكيد ـ أنتِ وأنا و ـ بالطبع الدكتور واتسون. إنه الرجل المناسب. المرسل يقول: صديقان، وأنا والدكتور سبق لنا العمل سوية».

سألتني بصوت يحمل نبرة من التوسل: «ولكن، هل سيقبل هو بذلك؟».

أجبت بحماس: «أكون فخوراً وسعيداً إذا استطعت ان اقدم أية خدمة».

قالت: «انتما لطيفان جداً، إنني أعيش في عزلة تقريباً وليس لديَّ أصدقاء أستطيع اللجوء إليهم. إذا كنت هنا في السادسة مساء يكون الوقت مناسباً، أليس كذلك؟».

قال هولمز: «لا تتأخري عن ذلك. لكن هناك مسألة أخرى. هل هذا الخط هو نفسه الذي كتبت به العناوين على العلب الكرتونية؟».

اجابته: «إنني احملها جميعاً»، وقدمت له نصف دزينة من الأوراق.

ـ «أنت بالتأكيد زبونة مثالية. تملكين الحدس الصحيح. دعيني اراها الآن». وبسط الأوراق على الطاولة وهو يحدق فيها واحدة تلو الاخرى، ثم قال: «الخط فيه شيء من المكر باستثناء الرسالة. لكن ليس هناك من شك في الكاتب، إنها بالتأكيد مرسلة من قبل الشخص نفسه، انظرا إلى طريقة حرف (e) فيها جميعاً، وإلى الإستدارة الأخيرة في حرف (S) أيضاً. لا أريد ان أوحي لك بآمال كاذبة يا آنسة موريستان، ولكن هل هناك شبه بين هذه الكتابة وخطّ والدك؟».

ـ «لا، على الاطلاق».

ـ «توقعت إجابتك هذه. سوف تعودين لاصطحابنا عند السادسة إذن. ارجو ان تسمحي لي بالاحتفاظ بالأوراق، قد أعيد النظر في الأمر قبل الموعد. إنها الآن الثالثة والنصف، إلى اللقاء إذن».

قالت ضيفتنا: «إلى اللقاء»، وهي تلتفت إلى كل منا بلطف، ثم اعادت علبة اللآلىء إلى حقيبتها وخرجت مسرعة.

قلت وأنا التفت نحو رفيقي: «يا لها من امرأة جذابة!».

كان قد أشعل غليونه مرة ثانية، وأرجع ظهره إلى الوراء وبدا التعب في عينيه، قال بفتور: «حقاً؟ انا لم الاحظ ذلك».

قلت بصوت مرتفع: «أنت بالفعل إنسان آلي ـ آلة حاسبة. وتبدو لي أحياناً وكأنك لست كسائر البشر».

ابتسم بهدوء وردّ قائلاً: إنه لمن الأهمية بمكان ان لا تترك المجال للعـواطف الشـخصيـة أن تؤثر على رأيك. الزبون بالنسبة لي هو مجـرد وحـدة، أو عامـل في مسألة معينة. إن الجوانب العاطفية مرفوضة في التفكير السليم. أؤكد لك بأن أجمل سيدة عرفتها نُفّذ فيهـا حكم الإعـدام شنقاً لأنها أقدمت على قتل أطفالها الثلاثة بواسطة السمّ وذلك من أجل الحصول على قيمة بوليصة التأمين التي تخصّـهم، وأكثر رجل فظّ عرفته كان مبغضاً للناس، لكنه انفق على فقراء مدينة لندن حوالي ربع مليون من الجنيهات».

ـ «لكن بالنسبة لهذه الحالة».

ـ «أنا لا أستثني أبداً. الاستثناء يبطل القاعدة. هل سبق لك ودرست شخصية المرء من خطّه؟ بماذا توحي لك هذه الخربشة؟».

أجبتـه قائـلاً: «الخط مقروء ومتناسق. هذا الرجل له باع في التجارة، ويتمتع بقوة شخصية».

هزّ هولمز رأسه قليلاً: «انظر إلى الحروف الطويلة. إنها بالكاد تعلو قليلاً عن الحروف الأخرى، حرف (d) قد يكون حرف a وحرف (l) حرف (e). ذوو الشخصية المتميزة ينتبهون دائماً للفارق بين الحروف، حتى ولو كانت كتابتهم غير مقروءة تقريباً. هناك تردد في حرف (r) وتقدير ذاتي في الحروف الأولى، إنني خارج الآن. ثمة امور يجب ان أنتهي منها. واقترح عليك قراءة واحد من أهم الكتب التي صدرت حتى اليوم، إنه كتاب «وينوود ريد» «معاناة الانسان» سأعود بعد ساعة».

جلست قرب النافذة والكتاب في يدي، لكن أفكاري كانت بعيدة

عن تأملات الكاتب الجريئة. كنت أفكر بالزائرة - ابتساماتها، نبرات صوتها العميقة والصافية، والغموض الغريب الذي يحوم حولها، هي لو كانت في السابعة عشرة عند اختفاء والدها فإنها اليوم في السابعة والعشرين - فترة عذبة، يبدأ الشباب خلالها يتخلّى عن ذاتيته وتجعله التجارب أكثر رصانة. استغرقت في تأملاتي إلى ان بدأت أفكار خطيرة تقتحم عزلتي فنهضت مسرعاً إلى مكتبي وانغمست بجدية في قراءة آخر بحث حول علم الأمراض، ذلك انني لست سوى طبيب في الجيش رجله ضعيفة وكذلك حسابه في المصرف، فكيف اجرؤ على التفكير في هذه الأمور؟ ليست هذه الشابة إلّا وحدة أو عاملاً في قضية - لا أكثر. حتى لو كان مستقبلي قاتماً، فمن الأفضل بالطبع مواجهته بجرأة بدلاً من محاولة إنارته بسراب الخيال المخادع.

-٣-

بحثاً عن حل

كانت الساعة الخامسة والنصف حين عاد هولمز. كان وجهه مشرقاً، وبدا متحمساً ونشيطاً، وهذا مزاج قد ينقلب عنده إلى حالات من اليأس المطلق.

قال وهو يتناول كوب الشاي الذي قدمته له: «ليس في الأمر الكثير من الغموض. تبدو الوقائع وكأنها تقود إلى تفسير واحد»

ـ «ماذا حصل؟ هل وجدت الحل بهذه السرعة؟»/.

ـ «لا، هذا أكثر مما عنيت. لقد توصلت إلى عنصر هام، هذا كل ما في الأمر، لكنه على أية حال شديد الأهمية. هناك تفاصيل يجب إضافتها. لقد عرفت منذ قليل وأنا أتفقد ملفات التايمز القديمة ان الرائد شولتو الذي يسكن في نوروود، وكان من أعضاء فرقة المشاة الرابعة والثلاثين في بومباي، توفي في الثامن والعشرين من شهر نيسان (ابريل) عام ١٨٨٢».

ـ «يبدو انني بليد الذهن يا هولمز لانني عاجز عن فهم مدى أهمية هذا الأمر».

ـ «صحيح؟ أنت تدهشني. أنظر إلى الموضوع من هذه الزاوية

إذن، الكابتن مورستون يختفي. الشخص الوحيد الذي قد يكون قام بزيـارته هو الرائد شولتو. والرائد شولتو ينكر بأنه على علم بوجوده في لندن. وبعد ذلك بأربع سنوات يموت شولتو. وبعد وفاته باسبوع واحد تصل إلى إبنة الكابتن مورستون هدية ثمينة أخذت تتكرر سنة بعد سنة وتبلغ ذروتها بالرسالة التي تصفها بأنها امرأة مظلومة. أي ظلم تشير إليه الرسالة سوى حرمانها من أبيها؟ ولماذا تبدأ الهدايا مباشرة بعد وفاة شولتو إلّا إذا كان وريثه يعرف شيئاً من هذا اللغز ويودّ ان يقدم تعويضاً؟ هل لديك رأي آخر استناداً إلى هذه الوقائع؟».

ـ «لكن يا له من تعـويض غريب! وأسلوب تقديمه يبدو أكثر غرابـة ثم لماذا أيضاً يكتب رسالة الآن، ولم يفعل ذلك قبل ست سنوات؟ هذا بالإضافة إلى ان الرسالة تقول بأنها ستنصفها. أي إنصاف هذا؟ من المستبعد ان يكون والدها لا يزال حيّاً. ولا نعرف ان هناك ظلماً آخر لحق بها».

قال شرلوك هولـز وهو مستغرق في التفكير: «هناك صعوبات؛ هناك بالتأكيد صعوبات، لكن حملتنا الليلة ستحلّها جميعاً. آه، لقد وصلت عربة الآنسة مورستان، هل أنت جاهز؟ إذاً من الأفضل ان ننزل في الحال، لأننا على وشك ان نتأخر».

تناولت قبعتي وعصاي، وانتبهت إلى ان هولمز أخذ مسدسه من الدرج ووضعه في جيبه. واضح انه يعتبر عملنا هذه الليلة على شيء من الخطورة.

كانت الآنسة مورستان ترتدي معطفاً واسعاً أسود اللون، وبدت ملامحها المرهفة هادئة يشوبها الشحوب. كان يجب ان تكون أكثر

من امـرأة كي لا تشعر ببعض القلق إزاء العمل الغامض الذي شرعنا في تنفيذه، لكنها كانت تتمالك نفسها جيداً، وأجابت مباشرة على الأسئلة الإضافية التي وجّهها إليها شرلوك هولمز.

قالت: «الرائد شولتو كان صديقاً عزيزاً لوالدي، كانت رسائله إليّ مليئة بالعبارات التي تشير إلى الرائد. كان هو ووالدي في قيادة القـوات في جزر أندمان، لذلك أمضيا وقتاً طويلاً معاً بالمناسبة هناك ورقة غريبة عُثر عليها في مكتب والدي ولم يفهم أحد معناها. لا أظن ان لها أهمية، لكنني تصوّرت بأنك تفضل مشاهدتها، لذلك احضرتها معي. ها هي».

تناول هولمز الورقة بتأن وسوّاها على ركبته، ثم قام بتفحصها باهتمام شديد بواسطة عدسته.

قال: «إنها ورقة من انتاج هندي محلي. سبق وان علّقت على لوح. والرسم الذي يظهر عليها يبدو كأنه خارطة لقسم من مبنى ضخم فيه قاعات عديدة، وممرات ومجازات بين الأقسام المختلفة في نقـطة محـددة رسم لصليب صغـير بالحبر الأحمر كتب فوقه «٣,٣٧ من جهـة اليسـار» والكتابة باهتة ودوّنت بالرصاص. في الزاوية اليسرى توجد أربعة صلبان شكلها هيروغليفي غريب، وهي مرسومة على خط واحد وذراع كل منها يلامس ذراع الآخر. وإلى جانبهـا مدوّن بخـط عريض وحاد: «عصابة الأربعة ـ جوناثان سمول، محمد سنج، عبدالله خان، دوست أكبر» أعترف بأنني لا أرى العلاقة بين هذه الورقة وبين القضية إلّا انها بالتأكيد وثيقة مهمة، كانت محفوظة بعناية بين صفحات كتاب، لأنها نظيفة من الجهتين».

ـ «لقد وجدناها بالفعل بين صفحات كتاب».

ـ «احتفظي بها بعناية، يا آنسة مورستان، لأنها قد تكون مفيد لنا. بدأت اعتقد ان الأمر سيكون اكثر تعقيداً ودقة مما تصورت للوهلة الأولى. يجب أن أعيد النظر في أفكاري».

أسند ظهره إلى المقعد، وبدا من خلال انحناءة حاجبيه والشرو في عينيه انه كان مستغرقاً في أفكاره. أخذت أتبادل الحديث مع الآنسة مورستان بصوت منخفض حول رحلتنا هذه وما قد يتأتى عنها، لكن مرافقنا حافظ على تكتّمه وصمته حتى نهاية الطريق.

أقبل المساء ولم تكن الساعة قد شارفت على السابعة بعد، كان هذا اليـوم من أيام شهر أيلول كئيباً، والضباب الكثيف والرطب يغمر المدينة، والسحب التي تشبه الطين بلونها كانت تنسدل فوق الشوارع الموحلة والقاتمة. في شارع ستراند كانت المصابيح بقعا ضبابية تلقي وميضاً باهتاً ومستديراً على الرصيف الموحل. كان الوهج الأصفر يتسرب من نوافذ المخازن إلى الهواء المشبع بالبخار ويرسل إشعاعاً متأرجحاً وضبابياً على الشارع المزدحم. والموكب اللامتناهي من الوجوه التي تمر مسرعة أمام أشعة الضوء النحيلة كان شبحياً ومخيفاً في عينيّ ـ وجوه حزينة وفرحة، منهكة ونشيطة. ومثل كل الناس، كان هؤلاء المارة يعبرون من الظلام إلى الضوء وإلى الظلام ثانية.

لست ممن يستسلمـون للأفكـار الغريبة، لكن المساء الغائم والمنذر بالمطر بالإضافة إلى المهمة الغريبة التي أوكلت إلينا، كل هذه العناصر اجتمعت لتجعلني مضطرباً ومتضايقاً. وبدا لي من تصرفـات الآنسـة مورستان انها تعاني من الحالة نفسها. هولمز

وحده يستطيع ان يتخطى مثل هذه المؤثرات الثانوية. كان يضع دفتر ملاحظاته مفتوحاً على ركبته، ومن حين إلى آخر كان يدوّن فيه افكاراً وأشكالاً على ضوء مصباح الجيب الذي يحمله.

كانت الجمـوع محتشـدة عند مدخل مسرح ليسيوم. وكانت المركبات بعجلتين او بأربع عجلات تتسارع أمام المسرح، فتتوقف قليـلاً لتفرغ حمولتها من رجال يرتدون بدلات السهرة وسيدات بكامل اناقتهن وزينتهن. لم نكد نصل إلى العمود الثالث وهو المكان المحدد للقاء، حتى تقدّم نحونا برشاقة رجل قصير القامة أسمر اللون يرتدي بذلة سائق، وخاطبنا قائلاً: «انتم جماعة الآنسة مورستان؟».

قالت له: «أنا الآنسة مورستان، وهذان السيدان صديقان لي».

نظر إلينا ملياً بعينين ثاقبتين ومرتابتين، وقال بإصرار: «أرجو المعذرة يا آنسة، ولكنْ لديّ أمر بالتأكد ان أياً من مرافقيك ليس شرطياً».

اجابته قائلة: «استطيع ان أتعهد بذلك».

اطلق صفيراً حاداً، فتقدمت نحونا عربة يقودها سائق عربي وفتح لنا الباب. صعد الرجل الذي قابلنا أولاً ثم تبعناه، ولم نكد نأخـذ امـاكننـا في داخـل العربة حتى استحث السائق الجواد بالسوط، فاندفعنا بسرعة بالغة عبر الشوارع الضبابية

كان وضعنا غريباً. كنا في طريقنا إلى مكان مجهول، في مهمة مجهولة. والدعوة التي وُجهت إلينا قد تكون مجرد خدعة ـ وهذا

افتـراض غير مقبـول ـ أو اننا نستطيع فعلاً انتظار نتائج هامة ستتأتى من رحلتنا هذه.

بدت الآنسـة مورستـان هادئـة وواثقـة من مسعانا، حاولت الترويح عنها وتسليتها بذكريات مغامراتي في أفغانستان، إلاّ انني بصراحـة كنت منفعلاً من وضعنا ومنشغل البال في المكان الذي نقصده لدرجة ان حكاياتي كان يشوبها بعض التشويش. وحتى هذا اليوم تقول الآنسة مورستان انني أخبرتها نادرة مثيرة عن إيل دخـل إلى خيمتي في منتصف الليـل، وانني أطلقت عليـه ذخيرة بندقيتي المزدوجة. في البداية كان من السهل عليّ معرفة الاتجاه الذي نسير فيه، لكن بعد فترة وبسبب السرعة والضباب ومعرفتي المحدودة لمدينة لندن، فقدت وجهة سيرنا ولم أعد أميّز شيئاً سوى اننا نقطع مسافة طويلة جداً. لكن شرلوك هولمز لم يكن محتاراً أبداً وكـان يتمتم أسماء الشوارع فيما كانت العربة تجتاز الساحات وتقطع الشوارع الفرعية المتعرّجة.

أخـذ هولمز يردد: «روتشستررو، والآن فنسنت سكوير، والآن وصلنا إلى فوكسهول بريدج رود. نحن باتجاه ضاحية ساري كما يبدو. أجل، هذا ما توقعته. نحن الآن على الجسر. نستطيع رؤية مياه النهر».

استطعنا بالفعل ان نشاهد بسرعة خاطفة التماعة مياه التايمز تحت المصـابيـح التي ترسل أشعتها المتلألئة على صفحة مياهه الواسعـة والسـاكنـة؛ واجتازت عربتنا الجسر لتحملنا إلى متاهة جديدة من الشوارع على الجانب الآخر.

قال رفـيقي: «وردورث رود، برايـوري رود، لارك هول لاين،

ستوكويل بلايس، شارع روبرت، كولد هاربور لاين. يبدو ان بحثنا لا يقودنا إلى أماكن كثيرة الرقيّ».

كنا بالفعل قد وصلنا إلى ضاحية تبعث على الريبة والنفور صفوف طويلة من بيوت الآجر المعتمة يضيئها وهج مصابيح الحانات عند ناصية الشارع. ثم صفّان من «الفيلات» وأمام كل واحدة منها حديقة صغيرة، تأتي من بعدها صفوف لا تنتهي من أبنية الآجر الجديدة مجسّمات عملاقة ألقت بها المدينة الكبيرة في أرض الريف. توقفت العربة أخيراً عند ثالث بيت في صف من المنازل الحديثة. لم تكن المنازل الأخرى مسكونة، والبيت الذي وقفنا أمامه كان معتماً أيضاً، وليس فيه إلّا ضوء خافت كان يتسرب من نافذة المطبخ. حال وصولنا فتح لنا الباب خادم هندي تغطي رأسه عمامة صفراء، ويرتدي بدلة بيضاء فضفاضة ويضع حزاماً أصفر، كان شكل هذا الخادم الشرقي غير منسجم مع بيت عادي من بيوت الضاحية.

قال لنا: «(الصاحب) في انتظاركم»، وفيما كان يتكلم سمعنا صوتاً حاداً وعالياً من إحدى الغرف الداخلية يقول: «دعهم يتفضلون يا ختمتغار، دعهم يدخلون إليّ مباشرة».

- ٤ -

حكاية
الرجل الأصلع

تبعنا الخادم الهندي عبر ممر عادي ومهمل، سيء الإنارة وأكثر سوءاً من ناحية الأثاث، حتى وصل بنا إلى باب في الجهة اليمنى وعندما فتحه تدفق بريق أصفر من الداخل، وبدا من خلال ذلك البريق رجل صغير البنية، يغطي جانبي رأسه الشامخ شعر أحمر خشن يلتف حول مساحة جرداء لامعة تبدو والشعر من حولها كأنها قمة جبل تكسوه أشجار التنّوب. كان واقفاً وهو يضع يداً في يد، وكانت ملامحه دائمة التبدل من الابتسام إلى العبوس لا تهدأ دقيقة واحدة. منحته الطبيعة شفة متدلية ومجموعة غير متناسقة من الأسنان الصفراء التي كان يحاول جاهداً إخفاءها باستخدام يده لتغطية القسم الأسفل من وجهه، وبالرغم من الصلع الناتىء في رأسه كان يبدو شاباً، والحقيقة انه كان في بداية الثلاثين من عمره.

قال بصوت عالٍ ورقيق. «في خدمتك يا آنسة مورستان، في خدمتكما أيها السيدان. أرجو ان تتفضلوا بالدخول إلى مكتبي الخاص. إنه صغير الحجم يا آنسة، لكنه مجهّز حسب اختياري. إنه واحة فنية في وسط هذه الصحراء الهائلة في جنوب لندن»

دهشنا جميعاً من الغرفة التي دعانا للدخول إليها. لقد بدت في وضع لا يناسب هذا البيت التافه، كماسة من الصنف الأول تزين حلية من النحاس. أثمن وأجمل الستائر والانسجة الملونة كانت تغطي الجدران، وكانت معلقة في أماكن عدة لتبرز لوحة رائعة أو زهرية من بلاد المشرق. كانت السجادة، باللونين الأسود والعاجيّ، ناعمة ومكتنزة لدرجة ان القدم تستسيغ الغوص فيها، كما لو انها مساحة يغطيها الطحلب. وعلى جانبيها ألقي جلدا نمر كبيران مما أضفى المزيد من الفخامة على هذا الديكور الشرقي، كما بُرزت نارجيلة ضخمة وضعت على قماش مزخرف في زاوية الغرفة. وفي وسط الغرفة يتدلى مصباح على شكل حمامة فضية يحمله شريط ذهبي تكاد لا تراه العين. وفيما كان يشتعل كان يملأ جو الغرفة برائحة لطيفة وعطرة.

قال الرجل القصير وهو لا يزال يرتغش ويبتسم: «اسمي تاديوس شولتو. وأنتِ الآنسة مورستان بالطبع، وهذان السيدان...».

ـ «هذا السيد شرلوك هولمز، وهذا الدكتور واتسون».

قال بعصبية متزايدة: «دكتور؟ هل تحمل معك سماعة الفحص؟ هل أستطيع ان أطلب منك ان تتكرّم بمعاينتي؟ إنني اشك في صحة الصمام التاجيّ. الشريان الأورطي لابأس به، لكنني أود ان أسمع رأيك بالنسبة للصمام..».

استمعت إلى قلبه بناء على طلبه، لكنني لم أجد أي نقص، سوى انه كان خائفاً بالفعل لدرجة انه كان يرتجف من رأسه حتى قدميه.

قلت له: «يبدو كل شيء طبيعياً. لا داعي للقلق».

أجاب برقّة: «أرجو ان تعذريني لانفعالي يا آنسة مورستان، منذ فترة طويلة وأنا أعاني وأشك في أمر هذا الصمّام، وأنا سعيد الآن لأن خوفي في غير محله. لو ان والدك يا آنسة مورستان انتبه لقلبه ومنع عنه المزيد من الإجهاد لكان اليوم على قيد الحياة».

كنت أود لو اضرب هذا الرجل على وجهه، فقد أثارني بأسلوبه القاسي والفظ في التعرّض لموضوع دقيق كهذا. جلست الآنسة مورستان وهي شاحبة الوجه وقالت: «كنت متأكدة من انه مات».

قال لها: «استطيع ان أقدم لك ما تشائين من معلومات. وبالإضافة إلى ذلك أستطيع ان أنصفك؛ وسوف أفعل ذلك مهما كان رأي أخي برتلوميو. أنا سعيد بوجود صديقيك هنا ليس فقط كمرافقين لك بل كشاهدين على ما سأفعله وسأقوله. نحن الثلاثة نشكل جبهة قوية في مواجهة أخي برتلوميو. لكنني أرجو ان نستبعد المتطفلين من الشرطة أو الموظفين الرسميين، نستطيع التوصل إلى اتفاق مرضٍ فيما بيننا بدون أي تدخل، لا شيء يضايق أخي برتلوميو أكثر من شيوع الأمر».

جلس على اريكة واطئة وهو ينظر إلينا بعينين زرقاوين طارفتين، فقال له هولمز: «بالنسبة لي، أي شيء تود قوله لن أنقله لأحد».

وقمت بإحناء رأسي لإظهار موافقتي على ذلك. فقال: «حسناً! حسناً! هل استطيع ان اقدم لك كأساً من الشيانتي يا آنسة مورستان؟ أو من التوكاي؟ أنا لا احتفظ بأنواع أخرى من الخمور. هل أفتح زجاجة؟ لا؟ حسناً، أعتقد انك لا تتضايقين من التدخين، أو من الرائحة المسكّنة للتبغ الشرقي. إنني مضطرب قليلاً، وأجد في النارجيلة مهدّئاً لا مثيل له».

أشعل فتيلاً في الوعاء الكبير وبدأ الدخان يتصاعد عبر المياه الوردية، كنا نحن الثلاثة نجلس في نصف دائرة وكل واحد منا يسند رأسه بيده، فيما مضيفنا الصغير والمرتعش والغريب الأطوار برأسه اللامع ينفث الدخان باضطراب في وسط الغرفة.

قال: «عندما قررت ان أبعث إليك رسالتي، كنت أستطيع ذكر عنـوانـي؛ لكـنني كنت أخشى ان ترفضي طلبي وتحضري معـك أشخـاصـاً كريهين. لذلك قررت تحديد الموعد بهذه الطريقة كي يتمكّن حارسي ويليامز من رؤيتكم اولاً. إنني أثق فيه ثقة مطلقة، وكانت لديه الأوامر بأن يلغي اللقاء في حال عدم اقتناعه. أرجو ان تعذروني لاتخاذ هذه الاحتياطات، لكنني رجل ذو مزاج منكفىء وأستطيع ان أكون رقيق أيضاً، وليس هناك ما هو أكثر قبحاً من رجل الشرطة. لدي نفور طبيعي من كل الأشكال المادية الفظّة. نادراً ما أخرج بين الناس العاديين. إنني أعيش، كما ترْون، في مناخ خاص من الأناقة يحيط بي، أستطيع ان أطلق على نفسي لقب نصير الفنـون، هذه نقـطة ضعفي. هذا المشهد الطبيعي لوحة أصلية لكـورو، مع ان خبـيراً قد يشـك في أمر تلك اللوحة ونسبتها إلى سلفاتور روزا، ولكن لا مجال للشك أبداً في أصالة لوحة بوجرو. إنني أميل إلى المدرسة الفرنسية الحديثة».

قالت الآنسة موريستان: «أرجو المعذرة يا سيد شولتو، لكنني حضرت بناء على طلبك من أجل معرفة أمر تودّ إطلاعي عليه. الوقت متأخر، وأودّ لو يكون اللقاء أقصر وقت ممكن».

أجابها بقوله: «من الأفضل ان يأخذ بعض الوقت. لأننا سوف نضـطر للذهـاب إلى نوروود لمقـابلة أخي برتلوميو. سوف نذهب

جميعاً ونحاول الحصول على أفضل ما يمكن تقديمه. إنه غاضب جداً لأنني اتخذت المبادرة التي بدت الطريق الصواب بالنسبة لي. الليلة الماضية تبادلت وإياه حديثاً قاسي اللهجة. لا يمكنكم تصور مدى فظاعة هذا الانسان حين يغضب»

تجرأت وقلت له: «إذا كنا سنذهب إلى نورووِد فيجب ان نبدأ رحلتنا في الحال».

ضحك حتى احمرت أذناه، وصرخ: «هذا ليس وارداً. لا أعرف ماذا سيقول لو اصطحبتكم لزيارته بهذا الاسلوب المفاجىء. لا، يجب ان أبدأ بإعدادكم وذلك بشرح موقف كل واحد منا بالنسبة للآخر. وأقول لكم: أولاً، ان هناك عدة نقاط مازلت أجهلها. إنني استطيع فقط ان أعرض الوقائع أمامكم كما أعرفها.

«كان والدي، ولا شك انكم تعرفون ذلك الآن، الرائد جون شولتو، من أفراد الجيش الهندي، تقاعد منذ إحدى عشرة سنة وعاد ليعيش في بونديتشري لودج في نورووِد العليا. كان قد جمع ثروة في الهند وعاد بمبلغ لا بأس به، بالاضافة إلى مجموعة كبيرة من التحف الثمينة ومجموعة من الخدم المحليين. اشترى لنفسه بيتاً وعاش في رفاهية. ولم يكن لديه أولاد إلّا أخي التوأم برتلوميو وانا.

«أذكر جيداً حالته عند وفاة الكابتن مورستان. قرأنا التفاصيل في الصحيفة، ولأننا كنا نعرف انه أحد أصدقاء والدنا أخذنا نناقش الأمر في حضوره. كان يشارك في تخمين الاحتمالات المعقولة. ولم نكن نشك لحظة واحدة ان السر كان مكتوماً في صدره، وانه وحده كان يعرف مصير آرثر مورستان.

«لكننا عرفنا ان لغزاً ما يحيط بحياة والدنا وانه كان في خطر فعلي. كان يخاف ان يخرج بمفرده، وكان يستخدم اثنين من الملاكمين المحترفين ليعملا عنده في بونديتشري لودج. ويليامز الذي كان يقود العربة هذا المساء هو واحد منهما، لقد كان ذات مرة بطل انكلترا في الوزن الخفيف لم يكن والدنا يخبرنا سبب خوفه، لكنه كان يكره ذوي الأرجل الخشبية. ولقد أقدم مرة على إطلاق رصاص مسدسه على شخص برجل خشبية تبين لاحقاً انه بائع غير مؤذ يطوف على التجار لتأمين الطلبات. قمنا بدفع مبلغ كبير من المال كي لا تُثار ضجة حول هذا الموضوع، كنت وأخي نعتقد انها مجرد نزوة عند والدي، لكن الأحداث اجبرتنا فيما بعد على تغيير رأينا.

«في بداية سنة ١٨٨٢ استلم والدي رسالة من الهند سببت له صدمة كبيرة. كان يتناول فطوره حين فتحها وكاد يغمى عليه، ومنذ ذلك اليوم أخذت تسوء صحته حتى يوم وفاته. لم نعرف أبداً محتوى الرسالة، لكنني القيت عليها نظرة وهي في يده فعرفت انها قصيرة ومكتوبة بخط مخربش. عانى والدي سنوات عديدة من تضخم في الطحال، ثم تدهورت حالته، وعرفنا عند نهاية شهر نيسان أن الأمل مفقود من شفائه، وانه يود ان يرانا للمرة الأخيرة.

«دخلنا غرفته فوجدناه في سريره ورأسه مرفوع على مجموعة من الوسائد ويتنفس بصعوبة، طلب منا ان نغلق الباب وان نقف بجواره، وثم أمسك بأيدينا وصرّح أمامنا بأمور ملفتة وذلك بصوت منخفض من شدة الانفعال والألم معاً. سأحاول ان اعيد كلماته أمامكم كما سمعتها منه.

قال: «شيء واحد فقط يشغل بالي في هذه اللحظة الحاسمة، ان

الاسلوب الذي عاملت به ابنة مورستان اليتيمة. الطمع الملعون الذي كان خطيئتي المزعجة خلال حياتي جعلني أحرمها من الكنز، الذي تستحق نصفه على الأقل. ومع ذلك لم أستخدمه أنا أيضاً. الجشع صفة غبية وعمياء. مجرد الإحساس بالامتلاك كان بالنسبة إليَّ في غاية الأهمية لدرجة انني لم اجرؤ على اقتسام الكنز مع شخص آخر. هل تريان تلك السبحة المصنوعة من اللآلىء بجانب زجاجة الكينين. حتى هذه لم أستطع ان أتخلى عنها، مع انني انتقيتها من أجل إرسالها إليها. أنتما، يا ولداي، سوف تعطيانها حصة عادلة من كنز آغرا. لكن لا ترسلا إليها شيئاً ـ ولا حتى السبحة ـ قبل رحيلي. إن اشخاصاً كثيرين ساءت حالتهم إلى هذا الحد ثم استرجعوا عافيتهم.

ثم تابع قائلاً: سأخبركما كيف مات مورستان. كان يعاني منذ سنوات من ضعف في القلب، لكنه أخفى الأمر عن الجميع كنت وحدي أعرف الحقيقة. أثناء وجودنا في الهند تمكّنا، خلال مجموعة من الظروف الاستثنائية، من الحصول على كنز هام. حملته معي إلى انكلترا، وليلة وصوله اتى مورستان إليَّ يطالبني بحصته. وصل إلى المحطة حيث لاقاه مرافقي المخلص لال شاودر الذي مات الآن، واصطحبه إلى هذا البيت. اختلفت مع مورستان حول طريقة اقتسام الكنز، وتبادلنا الكلمات القاسية. انتفض مورستان واقفاً في نوبة غضب حاد، ووضع يده فجأة على جبينه، صار وجهه بلون قاتم ووقع إلى الوراء، فسقط رأسه على زاوية صندوق الكنز. حين اقتربت منه تملكني الذعر حين وجدته قد فارق الحياة.

لفترة طويلة جلست أمامه مذهولاً، حائراً فيما يجب عليَّ ان

أفعله، كان تصوّري الأول بالطبع ان أطلب المساعدة؛ لكنني كنت على يقـين بأنني سوف أكون المتهم في هذه الجريمة. وفاته أثناء الخلاف، والجرح البليغ في رأسه، عنصرا اتهام مباشر لي. بالاضافة إلى ان التحقيق الرسمي سوف يتوصل بالتأكيد إلى المعرفة بوجود الكنز، وهذا ما كنت أود بالحاح ان أبقيه سراً. كان قد أخبرني أن أحداً لم يكن على علم بمجيئه إليّ، ولم يكن هناك من مبرر لأن يعرف أحد بذلك الآن.

«كنت لا أزال مستغرقاً في التفكير حين رأيت خادمي لال شاودر واقفاً في الباب. دخل بسرعة وأقفل الباب وراءه. قال لي: لا تخف يا صاحبي، لن يعرف أحد بأنك قتلته. دعنا نخبئه، ومن سيكشف الأمر؟ قلت له: أنا لم اقتله. هزّ لال شاودر برأسه وقال وهو يبتسم: لقـد سمعت كل شيء يا صاحبي. سمعتكمـا تختلفـان وسمعت الضربة. لكن شفتيّ لن تنطقا بكلمة. الكل نائمون فلنتخلص منه معـاً. كان هذا الكلام كافياً لاقناعي، فإذا كان خادمي لم يقتنع ببراءتي كيف سأتمكن من حمل اثني عشر تاجراً غبياً من المحلفين على الإقرار بذلك؟ تخلصت مع لال شاودر من الجثة في تلك الليلة، وفي غضون عدة أيام بدأت الصحف في لندن تثير مسألة اختفاء الكـابتن مورستـان الغـامضة أنتما تدركان الآن بأنني لم أكن مسؤولاً عما جرى. إن الخطأ الذي ارتكبته لم يكن في اخفاء الجثة فقط بل وفي اخفاء الكنز ايضاً وتمسكي بحصة مورستان. وأتمنى عليكما لأجل ذلك ان تصلحا الأمر. اقتربا مني أكثر. فالكنز مخبأ في...».

«في تلك اللحـظة تغـيّرت ملامحـه بشكل مروّع، عيناه حدّقتا

بالفراغ وارتخى فكّه وصرخ بصوت لن أنساه: «أخرجاه من هنا! من أجل الله أخرجاه من هنا!» التفتنا سوياً إلى النافذة خلفنا حيث كان ينظر ورأينا وجهاً يتأملنا في الظلام. استطعنا رؤية الاثر الذي تركه أنفه حيث كان يلصقه على زجاج النافذة، كان الشعر يغطي وجهه، ذو لحية، وعيناه تنمان عن شراسة وحقد وتكادان تنطقان بالكراهية. أسرعت وأخي نحو النافذة، لكن الرجل تمكّن من الهرب وحين عدنا إلى والدنا كان رأسه قد التوى جانباً وتوقف نبضه.

«في تلك الليلة بحثنا في الحديقة ولم نجد أي أثر للمتسلل سوى انه تحت النافذة في حوض الزهور كانت هناك آثار قدم واحدة. وأمام ضآلة ما وجدناه كدنا نعتقد ان الوجه الشرس والقاسي الذي رأيناه خلف النافذة كان من صنع خيالنا. لكننا ما لبثنا ان تأكدنا من وجود دليل آخر يثبت ان هناك مجموعات سرية تعمل من حولنا وجدت نافذة غرفة والدي مفتوحة عند الصباح، وقد تم البحث في خزائنه وصناديقه، ووجدنا على صدره ورقة ألصقت بملابسه وقد كتب عليها بخط رديء. «عصابة الأربعة». ولم نعرف أبداً معنى العبارة ولا شخصية الزائر الغامض. وحسب معرفتنا فإن أياً من ممتلكات والدي لم يسرق، مع ان كل شيء كان على الأرض، وربطنا بالطبع بين هذه الحادثة وبين الخوف الذي عانى منه والدي خلال حياته، لكن الأمر لا يزال غامضاً تماماً بالنسبة إلينا».

توقف الرجل القصير القامة قليلاً ليعيد إشعال نارجيلته وأخذ ينفث الدخان وهو يفكر لبضع دقائق. كنا جميعاً نستمع إليه بشغف مأخوذين بحكايته الغريبة. وعند ذكر حادثة موت والدها

صار وجه الآنسة مورستان شاحب اللون، حتى ظننت انها ستفقد وعيها. لكنها استجمعت قواها وتناولت كوب ماء قدمته لها من ابريق الزجاج الفينيسيّ الموضوع على الطاولة. اسند شرلوك هولمز ظهره شارد الذهن وجفناه مسدلان على عينيه اللامعتين، حين نظرت إليه استغربت كيف يستطيع ان يشكو بمرارة من ان الحياة شيء مألوف. امامنا الآن مشكلة سوف تكون امتحاناً قاسياً لذكائه، تطلع السيد تاديوس شولتو إلى كل واحد منا بكبرياء واضح من الأثر الذي تركته حكايته وتابع حديثه وهو يواصل التدخين بواسطة الأنبوب الطويل، قال:

«كنت وأخي، كما تتصورون بالطبع، مهتمين بموضوع الكنز الذي تحدث عنه والدي. مرت أسابيع وشهور ونحن نحفر وننقّب في كل جزء من أجزاء الحديقة دون ان نكتشف شيئاً. وكان يثير غضبنا ان والدي كان على وشك البوح لنا بمكان الكنز لحظة وفاته. كنا نستطيع ان نقدّر قيمة المجوهرات من المسبحة التي كان قد أخذها من الكنز. وحول هذه المسبحة تناقشت مع أخي برتلوميو، من الواضح ان اللآلىء كانت باهظة الثمن، وكان أخي يرفض التخلي عنها، لا بل أعترف امامكم ان أخي يعاني قليلاً من نقطة ضعف والدي. فقد ظن اننا لو أعطينا المسبحة فإن هذا سيثير الأقاويل وسيجلب لنا المتاعب، ولم اتمكن من إقناعه سوى بالبحث عن عنوان الآنسة مورستان وبإرسال لؤلؤة لها من المسبحة في فترات محددة حتى لا تشعر على الأقل بأنها في عوز».

قالت له الآنسة مورستان: «تلك كانت بادرة لطيفة منك. كنت طيباً للغاية».

رفع يده وكأنه يرفض الثناء على عمله وقال: «كنا وصيّين على حقّك، كنت أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية مع ان أخي برتلوميو لم يكن يشاركني الرأي. كنا نملك الكثير من المال، وأنا لم أكن أرغب في المزيد. بالإضافة إلى انه من غير اللائق التعامل مع آنسة شابة بأسلوب وضيع. «عدم اللياقة يفضي إلى الجريمة» هذه طريقة الفرنسيين المباشرة في تحديد الأمور وإيضاحها.

واشتد الخلاف بيننا حول هذا الموضوع فارتأيت أن أسكن وحدي، فغادرت بونديتشري لودج وأخذت معي ختمتغار العجوز وكذلك ويليامز. وعلمت البارحة ان حدثاً بارزاً قد حصل. لقد تم العثور على الكنز. بعثت مباشرة برسالة إلى الآنسة مورستان، ولم يبق أمامنا الآن سوى ان نقصد نوروود ونطالب بحصتينا. شرحت رأيي لأخي برتلوميو مساء أمس، لذلك فهو ينتظرنا مع انه لن يرحّب بقدومنا».

توقف السيد تاديوس شولتو عن الكلام وظل يرتعش وهو جالس على الأريكة الوثيرة. لزمنا جميعاً جانب الصمت والجميع يفكرون بالتطور الجديد الذي أسفرت عنه الأحداث، كان هولمز أول واحد وقف وقال: «أجدت الحديث يا سيدي، من البداية وحتى النهاية. قد نتمكّن من خدمتك في إلقاء بعض الضوء على الجزء الذي لايزال غامضاً بالنسبة لك. لكن، كما أشارت الآنسة مورستان منذ قليل، الوقت متأخر ومن الأفضل ان ننطلق مباشرة وبدون تأخير».

عمد السيد شولتو مباشرة إلى لفّ انبوب النارجيلة، وتناول من خلف الستارة معطفاً طويلاً تزينه جدائل للأزرار وقبة من فرو الأستراكان. ووضع على رأسه قبعة من فرو الأرانب تتدلّى منها

قطعتـان لتغـطية الأذنين، فلم يعد يظهر من جسمه سوى وجهه المضطرب والمرتعش.

قال وهـو يتقـدمنـا عبـر الممر: «صحتي ضعيفة ويبدو انني سأتحول إلى مريض بالوهم».

كانت العربة تنتظرنا في الخارج ويبدو ان تحركاتنا كانت مُعدّة سلفاً، لأن السائق انطلق بسرعة حال صعودنا. كان تاديوس شولتو يتـابع الحديث بصوت أعلى من جلبة العجلات، فقال. «برتلوميو انسان ذكي. كيف تظنون انه تمكن من العثور على الكنز؟ استنتج برتلوميـو انـه كان في مكان ما داخل البيت، فأخذ يبحث في كل الانحاء ولجأ إلى قياس كل المساحات بحيث لا يترك إنشاً واحد دون حساب. إلى جانب مجموعة من الحقائق اكتشف ان ارتفاع المبنى كان أربعة وسبعين قدماً، لكن عندما قام بجمع مقدار ارتفاع الغـرف مع الانتبـاه للمسـاحـة الفاصلة بينها والتي تأكّد منها بواسـطة الثقـوب، لم يتمكن من الوصول بالمجموع إلى أكثر من سبعـين قدمـاً، كانت هناك أربع اقدام ناقصة. وهذه لا بد انها موجودة في أعلى المبنى. قام بحفر سقف أعلى غرفة واخترق الجصّ والـخشب، وهناك وقع على عليّة صغيرة كانت مغلقة تماماً ولا يعرفها أحد، يتوسّطها صندوق الكنز مرفوعاً على عارضتين خشبيتين. قام بإنزاله عبر الحفرة إلى أرض الغرفة وأخذ يحصي قيمة المجوهرات التي يقدر بأن قيمتها لا تقل عن نصف مليون جنيه استرليني؟!

عند ذكر هذا المبلغ الضخم أخذ كل منا يحدّق مذهولاً بالآخر. فإذا تمكنـا من تأمين حق الآنسة موريستان فإنها ستتحول من مربية محتاجة إلى الوريثة الأكثر ثراء في انكلترا. بالتأكيد وفي مثل

هذه الأحوال كان عليَّ ان أفرح كصديق مخلص عند سماع هذه الأخبار، لكنني أخجل من القول ان الأنانية سيطرت على مشاعري وان قلبي ثقُل وكأنه رصاص في داخلي. ردّدت عدة عبارات متلعثمة للتهنئة ثم انـزويت مكتئباً، وأطرقت رأسي ممتنعاً عن الاصغاء لثـرثرة هذا الرجل الذي تعرفنا عليه للتو. من المؤكد انه مصاب بوسـواس المـرض، استمعت إليه وأنا مستغرق في أفكاري وإلى السلسلة اللامتناهية من الأعراض والمعلومات التي أخذ يذكرها حول تركيبة وفعالية مجموعة كبيرة من عقاقير الدجّالين، والتي كان يحمل بعضـها في محفظة جلدية يضعها في جيبه. أتمنى لو ينسى النصـائح الطبية التي قدمتها له، لأن هولمز قال لي فيما بعد انه سمعني أحذّره من خطورة تناول أكثر من نقطتين من زيت الخروع فيمـا أشرت عليه باستخدام الإستركنين بجرعات كبيرة كمسكن ومهما كان الأمر فإنني لم أشعر بالراحة إلاّ عندما توقفت بنا العربة وترجّل الحوذيّ لكي يفتح لنا الباب

قال السـيد شولتو وهو يقدم لها ذراعه لتستند إليها وهي تهبط من العربة: «هذا هو يا آنسة مورستان بونديتشري لودج».

-٥-

مأساة
بونديتشري لودج

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة تقريباً حين وصلنا إلى المرحلة الأخيرة في مغامرتنا الليلية. كنا قد تركنا الضباب الرطب يحيط بالمدينة خلفنا، وأصبح الليل صافياً تقريباً. هبّت ريح دافئة من الغرب، وكانت غيوم واطئة تمرّ ببطء عبر السماء، والقمر يظهر خلسة من وراء الثغرات المتروكة بينها كانت الرؤية سهلة لمسافة معقولة، لكن تاديوس شولتو تناول أحد المصابيح الجانبية من العربة لينير لنا الطريق على نحو أفضل.

يقع بونديتشري لودج على أرض واسعة يحيط بها سور مرتفع بني من الحجارة وقد ثبتت في أعلاه قطع من الزجاج المكسور. الباب الحديدي كان الوسيلة الوحيدة للدخول، ولذلك أخذ السيد شولتو يدق عليه بشكل متكرر وكأنه ساعي البريد. قال صوت فظ من الداخل: «مَنْ هناك؟».

ـ «هذا أنا يا ماكمردو. لقد صرت تعرف طريقتي في طرق الباب

صوت تذمّر وخشخشة مفاتيح وصرير باب يفتح. شاهدنا رجلاً قصيراً واسع الصدر يقف في الباب وهو يحمل مصباحاً أصفر أشاح بنوره عن وجهه الناتىء وعينيه المرتجفتين والمتلئتين ريبة.

ـ «أهذا أنت يا سيد تاديوس؟ من معك؟ لم تبلغني بشأن أحد آخر».

ـ «لا يا ماكمردو، انك تذهلني! لقد اخبرت أخي البارحة بأنني سوف اصطحب عدداً من الأصدقاء».

ـ «لم يخرج من غرفته طوال اليوم، يا سيد تاديوس ولا أوامر لديّ. انت تعرف جيداً ان عليّ ان أراعي الأوامر. استطيع ان اتركك تدخل، لكن أصدقاءك يجب ان يتوقفوا حيث هم».

كان هذا الحاجز غير متوقع. نظر تاديوس شولتو حوله بأسلوب مرتبك ويائس، وقال: «هذا تصرف غير مقبول يا ماكمردو، فأنا كفيل بهم وهـذا يجب ان يكون كافياً. ثم هناك الآنسة أيضاً، إنها لا تستطيع الانتظار على الطريق العام في هذه الساعة».

قال البواب بتصلب: «آسف يا سيد تاديوس، قد يكون هؤلاء اصـدقـاء لك، لكنهم ليسوا أصدقاء لسيدي. إنه يدفع لي جيداً مقابل ما أقوم به، وأنا سوف أقوم بعملي. أنا لا أعرف أياً من أصدقائك».

رد عليه شرلوك هولمز بصوت لطيف: «بلى يا ماكمردو، لا أعتقد انك نسيتني، الا تذكر ذلك الهاوي الذي كان منافساً لك في ثلاث جولات في نادي اليسون في المباراة التي ربحتها منذ أربع سنوات؟».

قهقـه المـلاكم قائلاً: «السيد شرلوك هولمز! يا إلهي! وهل من الممكن ألّا أعـرفـك؟ لو انك اقتربت مني بدلاً من وقوفك صامتاً وسدّدت إلى فكي تلك الضربة لكنت عرفتك بدون تردّد. أنت واحد

من الذين أضاعوا مواهبهم، أجل! كان بإمكانك الوصول إلى القمة لو انك اخترت الملاكمة».

قال هولـز ضاحكاً: «هل سمعت يا واتسون، لو فشلت في كل نشـاطاتي ستكـون لديَّ دائماً مهنة علمية تفتح أبوابها أمامي. والآن أنا متأكد ان صديقنا لن يدعنا نقف هنا في هذا البرد».

أجاب قائلاً: أرجوك تفضل بالدخول يا سيدي، تفضل بالدخول - أنت وأصدقاؤك. آسف جداً يا سيد تاديوس لكن الأوامر المعطاة إليَّ كانت شديدة.. كان عليَّ التأكد من أصدقائك قبل السماح لهم بالدخول».

سلكنا ممراً مفروشاً بالحصى يقطع أرضاً مقفرة ليصل إلى بيت ضخم، شكله مربع وعادي؛ كان معتماً إلَّا حيث انعكس ضوء القمر على زجاج نافذة العلية. أصابتني قشعريرة من هذا البيت الشاسع والظلام الذي يكتنفـه وصمتـه الكـلي. حتى تاديوس شولتو بدا منفعلاً والمصباح يهتز في يده، قال:

«أنا لا افهم ما يحدث، لا شك ان في الأمر خطأ ما. لقد أكدت لبرتلوميو بأننا سنأتي، ومع ذلك ليس هناك أي ضوء في الداخل. لا أعرف ما الذي يحدث».

سأله هولز: «هل يفضل ترك المبنى دائماً على هذا النحو؟».

- «أجل؛ لقد اتَّبع عادة والدنا، كان ابنه المفضّل، وأنا أعتقد أحياناً بأن والدنا اطلعه على أمور لم يطلعني عليها، هذه نافذة غرفة برتلوميو حيث ينعكس ضوء القمر. إنه نور ساطع لكنني لا أعتقد ان هناك إضاءة من الداخل».

قال هولز: «هذا صحيح. لكنني أرى وميض ضوء في تلك النافذة الصغيرة قرب الباب».

ـ «هذه غرفة مدبّرة المنزل السيد برنستون. ستخبرنا الآن ماذا يجري؟ أرجو ان تنتظروني هنا لدقيقة أو اثنتين لأن دخولنا معاً قد يثير خوفها خاصة إذا لم يكن لديها علم مسبق بمجيئنا. اسمعوا! ما هذا الصوت؟».

رفع المصباح بيده المرتجفة فأخذت دوائر الضوء تخفق وتضطرب من حولنا. أمسكت الآنسة مورستان بيدي، فيما كنا نسترق السمع. من داخل ذلك البيت المعتم تسرّب عبر الظلام صوت حزين ومؤلم وأنين حادّ لامرأة مذعورة.

قال شولتو «إنها السيدة برنستون. ليس في البيت امرأة سواها. انتظروني هنا، سأعود بعد قليل».

أسرع نحو الباب وقرعه بطريقته المميزة. شاهدنا امرأة طويلة، كبيرة في السن تفتح له الباب بدت سعيدة لمجرد رؤيته. ـ «آه يا سيدي تاديوس؛ أنا سعيدة بحضورك! أنا في غاية السعادة يا سيدي تاديوس»

سمعنا عبارات الفرح التي أخذت تردّدها إلى ان أغلقت الباب وغاب صوتها في نغم رتيب خافت.

كان مرشدنا قد ترك لنا المصباح. رفعه هولز قليلاً وحرّكه ليحدّق ملياً في البيت وفي أكوام النفايات الكبيرة التي تملأ الأرض. وقفت بجانب الآنسة مورستان ويدها في يدي. لا شك ان الحب احساس رائع وبارع، فنحن لم نلتق قبل هذا اليوم ولم نتبادل كلمة عاطفية

واحدة أو حتى نظرة، وفي ساعة عصبية سعت يدانا للتلاقي. أثار هذا الوضع دهشتي فيما بعد، لكنني لحظة حدوثه شعرتُ بأن انجذابي نحوها مسألة عادية، وهي أيضاً أكدت لي مراراً بأنها شعرت بالحاجة إليَّ طلباً للاطمئنان والحماية. وقفنا كطفلين يداً بيد، يغمر قلبينا الشعور بالسكينة رغم كل الأشياء المعتمة التي كانت تحيط بنا.

قالت وهي تنظر حولها: «يا له من مكان غريب! كأن كل حيوانات الخلد في انكلترا تُركت هنا. رأيت مشهداً مشابهاً لهذا على سفح تلة بالقرب من بلّارارت حيث كان المنقبّون يعلمون».

قال هولمز: «وهذه هي مخلّفات الباحثين عن الكنز: يجب ان نتذكر انهما امضيا ست سنوات في التنقيب. ليس غريباً إذاً ان تبدو الأرض مليئة بالحفر».

في تلك اللحظة فتح باب البيت وخرج السيد تاديوس شولتو مسرعاً، وبدا الذعر واضحاً في عينيه. قال: «هناك أمر مريب بالنسبة لبرتلوميو. أنا خائف جداً! أعصابي لا تتحمل كل هذا!».

كاد ينتحب وهو يقول ذلك من شدة خوفه، وبدت على وجهه الضعيف إستغاثة طفل مذعور.

قال هولمز بأسلوبه الحازم والقوي: «فلندخل إلى البيت». قال شولتو متوسلاً: «أرجوكم ان تفعلوا ذلك! إنني بالفعل لم أعد قادراً على إعطاء التوجيهات».

تبعناه إلى غرفة مدبرة المنزل، التي كانت تقع إلى اليسار من الممر. كانت السيدة العجوز تذرع المكان جيئة وذهاباً بخوف

واضطراب وهي تفرك أصابعها، لكن وجود الآنسة مورستان هدأ من روعها، فصرخت في نوبة هستيرية: «فليبارك الله وجهك الهادىء والعذب. لقد ارتحت عند رؤيتك. لكن هذا اليوم كان قاسياً عليّ إلى أبعد حد».

تقدمت منها رفيقتنا وربّتت على يديها النحيلتين اللتين ترك العمل فيهما اثراً، وقالت لها بضع كلمات حملت شيئاً من المواساة والتعاطف مما أعاد اللون إلى خديها الشاحبين. قالت تشرح لنا الأمر: «اقفل السيد على نفسه باب غرفته ولم يعد يرد عليّ. مضى اليوم وأنا أنتظر اشارة منه، لأنه يفضل الوحدة غالباً؛ لكنني منذ حوالي ساعة شعرت ان في الأمر ما يبعث على الريبة، فصعدت إلى الطابق الأعلى ونظرت خلسة عبر ثقب المفتاح. يجب ان تصعد يا سيد تاديوس، يجب ان تصعد وترى بنفسك. سبق لي ورأيت السيد برتلوميو شولتو في حالات فرح وحزن لمدة عشر سنوات طويلة، لكنني لم يسبق لي ان رأيته في هذه الحالة».

حمل شرلوك هولمز المصباح ومشى أمامنا، أما السيد تاديوس فإنه كان في حالة من الذعر، أسنانه تصطك ورجلاه ترتجفان لدرجة انني أمسكت بذراعه ونحن نصعد السلم. تناول هولمز العدسة مرتين من جيبه وأخذ يتفحص بعناية علامات بدت لي وكأنها مجرد بقع غبار على الحصير المصنوع من جوز الهند والذي كان يستخدم بساطاً للسلّم، كان ينتقل ببطء من درجة إلى أخرى وهو يخفض المصباح ويحدق في عدسته يميناً وشمالاً، وظلّت الآنسة مورستان مع مدبّرة المنزل الخائفة.

الجزء الثالث من السلم يفضي الى ممرّ طويل نسبياً، تزيّن جدرانه

الأيمن سجــادة هندية ضخمة، وفي الجانب الأيسر ثلاثة ابواب. تابــع هولمز تقدمه في الممرّ بخطواته النظامية والبطيئة، وكنا نحن نمشي في إثره، وظلالنا السوداء الطويلة ترتد وراءنا عبر الممرّ. كنا نقصد الباب الثالث. قرع هولمز الباب دون جدوى، ثم حاول أن يدير المقبض ويفتحه بالقوة؛ لكنه كان موصداً من الداخل بواسطة مزلاج عريض وقــويّ كما رأينا عندما رفعنا المصباح بقربه. ترك المفتاح الذي أدير فراغاً بسيطاً في الثقب؛ انحنى شرلوك هولمز لينظر من خلاله، ثم وقف مباشرة وهو يتنفس بسرعة.

لم يسبق لي أن رايته متأثراً الى هذا الحدّ؛ قال لي: «يبدو الأمر غريباً يا واتسون. ما رأيك؟».

انحنيت ونـظرت ثم تراجعت مذعـوراً. ضوء القمر كان يغمر الغرفة بنور فيه رجرجة وغموض رأيت امامي مباشرة راساً يحدّق فيّ، وقد بدا معلقاً في الجوّ وكلّ شيء تحته مغمور بالظلام - إنه يشبه تمــاماً وجه رفيقنا تاديوس. الراس الشامخ واللّامع نفسه بدائرة الشعـر الأحمر المجعد، والملامح الشاحبة نفسها. ارتسمت على الوجه ابتسامة مخيفة، وتكشيرة ثابتة غير طبيعية كانت تثير في تلك الغـرفـة الهادئة صدمة أكثر من أي عبوس أو التواء في قسمات الوجــه. كان الشبه بين الوجهين مذهلاً. لدرجة إنني التفتّ نحو صديقنا الصغير لأتأكد من أنه موجود معنا. ثم تذكرت بأنه أخبرنا بأنه وأخاه توأمان.

قلت لهولمز: «هذا فظيع! ماذا علينا أن نفعل؟».

قال: «يجب أن نفتــح الباب». واندفع بكلّ ثقله نحوه، أصدر صريــراً لكنــه ظلّ مغلقاً. حاولنا ثانية أن ندفعه معاً وبكلّ قوانا،

فسمعنا طقطقة، ثم بحركة سريعة تمكّنا من فتحة، لنجد أنفسنا داخل غرفة برتولوميو شولتو.

بدت الغرفة وكأنها أعدّت لتكون مختبراً كيميائياً. على الحائط المواجه للباب صُفت مجموعتان من قوارير مقفلة بسدّات زجاجية، وعلى الطاولة وضعت بدون ترتيب عدة مواقد، وأنابيب اختبار وأدواتٍ معوّجة. وفي الزوايا وضعت دامجانات الأسيد في سلال خاصة يبدو أن إحداها كانت ترشح أو أنها مكسورة لأن خيطاً من السائل الداكن تسرّب منها، والهواء كان مثقلاً برائحة حادّة تشبه رائحة القطران. في أحد الجوانب وضع سلم وسط ركام مبعثر من الخشب والجصّ، وفوقه وُجدت فجوة في السقف تتسع لرجل أن يمرّ عبرها. والى جانب السلّم القي حبل طويل ملفوف بإهمال.

على كرسي خشبي بجانب الطاولة كان سيّد البيت جالساً بلا حراك، رأسه مال على كتفه الأيسر وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الشبحية الغامضة. كان متصلّباً وبارداً وبدا واضحاً أنه فارق الحياة منذ ساعات عديدة. بدا لي أن الأمر لم يقتصر على ملامحه بل أن كل أعضائه كانت ملوية ومشوّهة بالأسلوب المخيف نفسه. وبجانب يده كانت على الطاولة آلة غريبة ـ عصا بنية اللون متقاربة الألياف لها رأس حجري يشبه المطرقة، تمّ تثبيته بشكل بدائي بواسطة خيط قنّب خشن. وبالقرب منها وضعت ورقة ممزقة من دفتر ملاحظات عليها خربشة من بضع كلمات. تأملها هولمز أولاً ثم أعطاني إياها.

قال وقد ارتفع حاجباه بحركة موحية: «اترى هذا؟».

وفي ضوء المصباح قرأت الورقة فارتعشت من الخوف: «عصابة الأربعة».

سألته قائلاً: «بحقّ اللّه، ما معنى كلّ هذا؟».

قال وهو ينحني قليلاً فوق الجثة: «هذا يعني أن في الامر جريمة. آه، هذا ما كنت أتوقعه. انظر هنا!».

وكان يشير إلى شيء يشبه شوكة طويلة سوداء انغرزت في الجلد فوق الأذن.

قلت: «يبدو أنها شوكة».

- «وهي شوكة تستطيع أن تنتزعها. لكن كن حذراً، لأنها مسمومة».

حملتها بين الاصبع والابهام، وقد خرجت من الجلد بسهولة حتى أنها بالكاد تركت أثراً. بقعة دم صغيرة تجمعت مكان الثقب.

قلت: «كلّ هذا لغز لا أجد له حلاً وهو يزداد غموضاً لا وضوحاً».

قال: «بل على العكس من ذلك انه يزداد وضوحاً في كلّ لحظة. انني بحاجة الى بضع حلقات ناقصة لأحصل على قضية مترابطة».

كدنا ننسى وجود رفيقنا منذ دخولنا الغرفة. كان لا يزال واقفاً في الباب، صورة ناطقة للرعب، يفرك يديه وينوح بينه وبين نفسه. لكنه صرخ فجأة يشكو: «اختفى الكنز، لقد سرقوا كنزه! أنزلناه من خلال هذه الفتحة. أنا ساعدته على ذلك! كنت آخر شخص رآه! لقد تركته هنا البارحة، وسمعته وهو يغلق الباب وأنا أهبط السلم».

- «في أية ساعة كان ذلك؟».

ـ «كـانت الســاعـة العاشرة. لقد مات هو الآن، وسوف تأتي الشرطة. وتثار حولي الشكوك، فيما حدث، أجل، أنا متأكد من ذلك. لكنكما لا تعتقدان ذلك بالطبع! هل من المعقول أن احضركما الى هذا المكان لو انني متورط فيما حدث؟ يا الهي، يا الهي، أعرف أنني في طريقي الى الجنون!».

هزّ يديه وضرب الارض برجله وكأنه اصيب بنوبة تشنّج. قال له هولـمز بهدوء وهو يضع يده على كتفه: «لا داعي للخوف يا سيد شولتو. إعمل بنصيحتي واذهب بالعربة الى مركز الشرطة وبلّغ عن الحادثة، واعرض عليهم مساعدتك في كل المجالات. سوف ننتظر رجوعك هنا».

وافق الرجل الصغير كما لو انه مخدر، وسمعنا وقع خطاه المرتبكة على السلّم في الظلام.

- ٦ -

شرلوك هولمز
يقدم عرضاً

قال لي هولمز وهو يفرك يديه: «والآن يا واتسون، أمامنا نصف ساعة فلنستخدمها جيداً، القضية بالنسبة لي، كما أخبرتك، تكاد تكتمل؛ لكن يجب أن لا نقع في الخطأ بسبب الثقة المفرطة، تبدو القضية بسيطة الآن، لكن ربما يكون فيها ما هو أعمق من ذلك».

قلت مستغرباً: «بسيطة!».

قال: «بالتأكيد». وبدا كأستاذ في الطبّ يشرح درساً لطلابه حين تابع: «اجلس في الزاوية هناك كي لا تزيد آثار قدميك الأمور تعقيداً، والآن الى العمل! أولاً، كيف دخل هؤلاء الأشخاص، وكيف خرجوا؟ لم يفتح باب الغرفة منذ ليلة البارحة. فكيف تسنّى لهم ذلك من خلال النافذة؟».

حمل المصباح الى جوار النافذة وهو يعدّد ملاحظاته بصوت عالٍ ولكن لنفسه أكثر مما كان يتوجه بها إليّ: «إطار النافذة صلب، ولا توجد مفاصل على الجانبين. فلنفتحها، لا انبوب ماء قريب، والسطح بعيد، لكن رجلاً تمكّن من الوصول الى النافذة. أمطرت السماء قليلاً في الليلة الماضية، هذا أثر قدم بارز على عتبة النافذة، وهنا علامة دائرية موحلة، وهنا أيضاً على أرض الغرفة، وكذلك

بجانب الطاولة، انظر يا واتسون! هذا بالفعل عرض جيد».

نظرت الى كتل الوحل الدائرية وقلت له: «هذه ليست آثار قدم».

ـ «إنها شيء أثمن من ذلك بالنسبة لنا. إنها أثر رجل خشبية. انظر هنا على عتبة النافذة هذه علامة حذاء ثقيل كعبه من المعدن، وبجانبها علامة قدم خشبية»

ـ «إذاً الرجل كان برجلٍ خشبية».

ـ «هذا صحيح. ولكن كان هناك شخص آخر ـ حليف قادر ومتمكّن. هل تستطيع أن تتسلّق هذا الجدار يا دكتور؟».

نظرت من النافذة المفتوحة، كان القمر لا يزال يضيء تلك الزاوية من البيت. كنا على ارتفاع حوالي ست أقدام عن الأرض، ومن مكاني لم أرَ أيّ شيء تستطيع اليد الامساك به، ولا حتى شقاً بين حجارة الآجر.

قلت له: «هذا مستحيل تماماً».

ـ «إنه كذلك ما لم تكن هناك مساعدة من أحد. ولكن افترض أن لك صديقاً في الداخل يرمي لك بهذا الحبل القوي، الذي أراه في الزاوية، بعد أن يربط طرفه الى هذه الحلقة المثبتة في الحائط، عندها يتمكن الرجل إذا كان نشيطاً من الصعود حتى برجله الخشبية. وهو نزل بالطبع بالطريقة نفسها، شريكه رفع الحبل وفكّه من الحلقة، وأغلق النافذة وأقفلها من الداخل، ثم خرج بالطريقة التي دخل بها. وهناك ملاحظة صغيرة تجدر الاشارة اليها (قال ذلك وهو يشير الى الحبل)، إن صاحب الرجل الخشبية لم يكن بحاراً محترفاً، لم تكن يداه صلبتين، فأنا أستطيع بواسطة العدسة أن

اتبين عدة آثار للدماء، خاصة عند نهاية الحبل، ويبدو انه انزلق في تلك المرحلة وبسرعة جعلت الحبل ينتزع الجلد عن يديه»

قلت: «هذا تحليل جيد، لكن الأمر يبدو أكثر غموضاً، فمن هو هذا الشريك المجهول وكيف تمكن من الدخول الى الغرفة؟».

قال هولمز وهو يفكر: «أجل، الشريك! هناك عناصر مهمة تتعلّق بهذا الشريك. انه يجعل القضية أكثر من عادية. اظنّ أن هذا الشريك سيضيف مآثر فريدة في سجلات الجريمة في هذا البلد ـ مع أن قضايا مماثلة جاءتنا من الهند، وإذا أسعفتني الذاكرة فانها كانت من سنيغامبيا».

عدت لأكرّر تساؤلاتي: «لكن كيف دخل؟ الباب مقفل، والنافذة لا يمكن الوصول اليها. هل فعل ذلك عبر المدخنة؟».

ـ «الموقد صغير جداً، لقد فكرت في هذا الاحتمال».

قلت بالحاح: «كيف تسنى له ذلك إذاً؟».

قال وهو يهزّ رأسه: «انت لا تطبّق منهجي في الإدراك. كم مرة قلت لك بأنك حين تحذف ما هو مستحيل، يجب أن يكون الباقي هو الحقيقة مهما بدا بعيد الاحتمال؟ نحن نعلم بأنه لم يدخل عبر الباب، ولا النافذة ولا المدفأة. ونعلم أيضاً أنه لم يكن مختبئاً في هذه الغرفة لأنه لا يوجد مخبأ معقول. من أين أتى إذاً؟».

أجبت بحماس: «أتى عبر الحفرة في السقف!».

ـ «بالطبع، لا شك أنه فعل ذلك. لو تتفضل وتحمل لي المصباح، سوف نوسّع نطاق بحثنا الى الغرفة العليا ـ الغرفة السرية التي وجد فيها الكنز».

صعد درجات السلّم، وأمسك بعارضة خشبية رافعاً جسمه الى داخـل العلية. ثم تمدّد ليلتقط المصباح ويحمله لكي أتمكن من اللحاق به.

كان طول العلية حوالي عشرة أقدام وعرضها ستة. ارضها كانت من العوارض الخشبية تفصل بينها ألواح رقيقة مكسوّة بالجصّ، حتى أن من يريد المشي في داخلها عليه أن ينتقل من عارضة الى أخـرى وكان السقف ينتهي في رأس هو بالتأكيد هيكل السطح الفعليّ، لم يكن هناك أثاث وقد تكوّنت على الأرض طبقة كثيفة من الغبار المتراكم منذ سنوات.

قال شرلوك هولمز وهو يضع يده على الحائط المنحني: «أترى، هذا ما أردنا. إنه باب يفضي الى سطح المبنى القليل الانحدار. هذا إذاً الطريق الذي سلكه الشخص رقم واحد للدخول، دعنا نبحث عن آثار أخرى تدلّنا عليه».

أدار المصبـاح نحو أرض الغرفة، وللمرة الثانية في تلك الليلة شاهدت نظرة ذهول ودهشة تملأ وجهه، وحين نظرت الى حيث كان ينـظر شعـرت بدوري ببرد شديد. كانت الأرض مليئة بآثار قدم حافية ـ آثار واضحة ومعالمها بارزة تماماً، لكن حجمها بالكاد يصل الى نصف حجم قدم رجل عادي.

قلت هامساً: «هولمز، الذي أقدم على هذا الفعل الشنيع كان طفلاً».

استجمع قواه في الحال وقال: «وأنا ارتبكت للوهلة الأولى، لكن الأمر يبدو طبيعياً الآن، ذاكرتي خانتني، أو أنه كان يجدر بي أن

أتوقعه. لم يعد هناك ما يخدمنا هنا فلننزل!

سألته بحماس حين وصلنا الى الغرفة السفلى: «ماذا تقول عن آثار الأقدام؟».

قال بشيء من التبـرّم: «يـا عزيـزي واتسـون جرّب أن تحلّل بنفسك. أنت تعرف أسلوبي، هذه فرصة لكي تطبقه وتقارن النتائج».

اجبته: «لا استطيع أن أجد تفسيراً يشمل الوقائع».

قال بطريقة غير لبقة: «سيتضح كل شيء سريعاً، أعتقد أنه لم يعد هنا ما يثير الاهتمام، لكنني سوف أتابع البحث».

حمل عدسته وماسورة للقياس ونزل على ركبتيه يقطع الغرفة وهو يقيس ويتأمل ويتفحّص. لم يكن أنفه الدقيق إلّا على ارتفاع مسافة قليلة عن الأرض؛ وكانت عيناه الصغيرتان غائرتين ولامعتين مثل عيني طائر، حركاته السريعة والصامتة والماكرة تشبه حركات الكلب البـوليسي المـدرّب وهو يحاول أن يتتبع رائحة معينة. ولم أتمالك نفسي من التفكير أنه كان سيصبح مجرماً مخيفاً لو أنه وجّه معرفته وذكاءه ضدّ القانون بدلاً من تكريسها لحمايته. فيما كان منهمكاً في التفتيش الدقيق كان يتمتم لنفسه؛ وأخيراً، رفع صوته في صرخة تعبّر عن فرحه، وقال:

«نحن بالتـأكيد محظوظون، لن تكون لدينا مشاكل كثيرة بعد الآن، يبـدو أن الشـخص رقـم واحـد داس لسـوء حظه في

الكريبيسوت(*). تستطيع أن ترى أثر جزء من قدمه الصغيرة هنا بجانب هذا السائل البشع الرائحة، الزجاجة مكسورة وبدأت تتسرب محتوياتها على الأرض».

سألته: «وماذا يعني ذلك؟».

قال: «لقد امسكنا به، هذا كل ما في الامر؛ انا أعرف كلباً يستطيع أن يتتبع تلك الرائحة حتى نهاية العالم. فإذا كانت الكلاب تستطيع أن تتبع رائحة سمكة السردين من مساحة شاسعة، فإلى أي مدى يستطيع كلب صيد مدرب أن يتتبع رائحة حادة كهذه؟ تبدو المسألة وكأنها عملية حساب معقدة... أهلاً! ها قد حضر ممثلو القانون المعتمدون».

وصلت الى مسامعنا أصوات اقدام ثقيلة وصيحات مرتفعة وسمعنا صوت باب المدخل ينغلق محدثاً صوتاً عالياً.

قال هولمز: «بسرعة قبل وصولهم، ضع يدك هنا على ذراع هذا الرجل المسكين، وعلى رجله هنا. بماذا تشعر؟».

قلت: «العضلات متصلبة كالخشب».

ـ «هذا صحيح. إنها في حالة تقلّص تام، أكثر من التيبّس العادي الذي يصيب الجسد بعد الموت، بالاضافة الى هذا التشويه في الوجه، وهذه الابتسامة الرهيبة، ماذا تستنتج من كلّ هذا؟».

قلت: «الموت من مركّب نباتي شبه قلويّ، مادة فعّالة تشبه

(*) الكريبيسوت سائل زيتيّ يستحصر بتقطير القطران ويستخدم في صيانة الخشب ومعالجة السعال.

الاستركنين والتي تؤدي الى الاصابة بالكزاز».

- «هذا ما تبادر الى ذهني منذ اللحظة الأولى التي شاهدت فيها عضلات وجهه المشدودة. وعند الدخول الى الغرفة أخذت أبحث عن الوسائل التي استخدمت لإدخال السم الى الجسم، وكما رأيت فقد عثرت على شوكة غرزت مباشرة في جلدة الرأس أو أطلقت عليها بدون جهد كبير، وتلاحظ أن الجزء المصاب هو الموجّه نحو الحفرة في السقف في حال أن الرجل كان يجلس منتصباً في كرسيّه. والآن افحص هذه الشوكة».

تناولتها بحذر شديد وحملتها أمام ضوء المصباح. كانت طويلة وحادة وسوداء، وبدت مصقولة عند طرفها وكأنها طليت بمادة صمغية، أما الطرف الحاد فقد تم تشذيبه وتدويره بواسطة سكين

سألني «هل هذه شوكة انكليزية».

- «لا، بالطبع لا».

- «مع كلّ هذه المعطيات يجب أن تتمكن من التوصل الى استنتاج صحيح. لكن القوى النظامية وصلت، ويستطيع الاحتياط أن ينسحب».

أخذت الأصوات تعلو وتقترب في الممرّ فيما كان هولمز يتكلم. ودخل علينا بخطوات ثقيلة رجل بدين وقويّ يرتدي بدلة رمادية أحمر الخدّين، ضخم الجسم، ممتلىء، عيناه صغيرتان وبرّاقتان برزتا من بين التجاعيد المنتفخة والمتورّمة. دخل وراءه مفتش يرتدي بدلة رسمية وتبعه تاديوس شولتو الذي كان الاضطراب لا يزال بادياً عليه.

قال بصوت قوي أجشّ: «هذه قضية! هذه قضية مهمة! لكن من هؤلاء؟ هذا البيت يبدو وكأنه جحر أرانب».

قال هولمز بهدوء: «أعتقد أنك تتذكرني يا سيّد أتلناي جونز».

قال وهو يتنفس بصعوبة: «لا شكّ أنني أذكرك! أنت السيد شرلوك هولمز واضع النظريات. أتذكّرك! أنا لن أنسى أبداً يوم ألقيت علينا محاضرة حول الأسباب والاستنتاجات والنتائج في قضية جوهرة «بيشوب غايت». من المؤكد أنك وضعتنا على الطريق السليم؛ لكن أنت تقرّ الآن أنك توصلت للحل بفضل الحظّ الجيد لا التوجيه الجيد».

- «لم يتطلب الأمر أكثر من عملية استنتاج بسيطة».

- «هيّا الآن، هيّا! يجب عدم الخجل من الاعتراف بذلك. لكن ماذا لدينا هنا؟ فعل مشين! فعل مشين! هذه حقائق واضحة - لا مجال للنظريات. من حسن حظّي أنني كنت في نوروود من أجل قضية أخرى! كنت في المركز عند وصول الخبر. ما الذي قتل الرجل باعتقادك؟».

قال هولمز بجفاف: «لا تبدو هذه القضية واضحة كي أعدّ لها تصوّراً نظرياً».

- «لا، لا. نحن لا ننكر بأنك كنت تصيب الهدف أحياناً، يا الهي! الباب موصد، لقد فهمت. مجوهرات بقيمة نصف مليون جنيه مفقودة، كيف كانت النافذة؟».

- «مغلقة؛ لكن هناك آثار قدم على العتبة».

- «حسناً، حسناً، إذا كانت موصدة فالآثار لا علاقة لها بالأمر،

هذا هو التفكير السليم. قد يكون الرجل مات في نوبة؛ لكن تبقى المجوهرات المفقودة. آه! لقد فهمت هذه الإلتماعات المفاجئة تنتابني أحياناً ـ أرجوك أن تخرج أيها الرقيب، وأنت أيضاً يا سيد شولتو. صديقك يستطيع أن يبقى ـ ماذا تعتقد يا هولمز؟ كان شولتو باعترافه مع أخيه ليلة البارحة. وأخوه مات في نوبة، فتركه شولتو وحمل الكنز معه، ما رأيك؟».

ـ «ثم نهض الرجل الميت بهدوء وأغلق الباب من الداخل؟».

ـ آه! هنا خلل ما. فلنفكّر قليلاً في الأمر، تاديوس شولتو كان موجوداً مع أخيه.. حصل بينهما خلاف: هذا ما نعرفه. الأخ مات والمجوهرات اختفت. هذا أيضاً نعرفه. لم ير أحد الأخ منذ تركه تاديوس. لم ينم أحد في سريره. تاديوس بالتأكيد في غاية الاضطراب. شكله ليس حسناً، على ما يرام. إنني أرمي شبكتي حول تاديوس. والشبكة بدأت تضيق عليه الخناق».

قال هولمز: «أنت لم تمتلك الوقائع بعد، هذه الشظية الخشبية وهي بالتأكيد مسمومة، كانت في جلدة رأسه حيث تستطيع أن ترى أثرها؛ هذه البطاقة، وعليها كتابة كما ترى، كانت على الطاولة بجانب هذه الآلة الغريبة ذات الرأس الحجرية. كيف تدخل هذه العناصر في تقديرك؟».

قال المفتش السمين بغرور: «إنها تؤكد على صحتها، البيت مليء بالتحف الهندية الغريبة. تاديوس حمل هذه الأداة معه، وإذا كانت الشظية مسمومة فإن تاديوس يكون قد استخدمها لأهداف اجرامية مثل أي شخص آخر، السؤال الوحيد هو، كيف خرج؟ آه، بالتأكيد، هناك حفرة في السقف».

تحرك بنشاط، يتناسب مع ضخامته، وصعد درجات السلم وتمكّن من ادخال جسمه عنوة الى العليّة، ومباشرة بعد ذلك سمعنا صوته يعلن بفرح كبير أنه عثر على الباب الذي يفضي الى السطح.

قال هولمز وهو يهزّ كتفيه: «يبدو قادراً على العثور على شيء. ويعرف حالات عرضية من الوضوح الذهنيّ. ليس هناك أكثر غباءً وإزعاجاً من أولئك الذين يدّعون النباهة».

قال أتلناي جونز وهو ينزل على السلم: «أرأيت! يبدو أن الحقائق أفضل من النظريات. لقد تأكدت وجهة نظري في القضية. هناك باب يؤدّي الى السطح وهو مفتوح قليلاً».

ـ «أنا فتحته».

قال بشيء من الخيبة: «آه، حقاً! أنت رأيته إذاً؟ حسناً، بغضّ النظر عن الشخص الذي رآه، فإنه يثبت لنا كيفية هروب الجاني. أيها المفتش!».

ردّ المفتش من الممر: «نعم سيدي».

ـ «اطلب من السيد شولتو أن يحضر أمامي. يا سيد شولتو من واجبي أن أحذرك من أن أي شيء تقوله الآن قد يستخدم ضدّك. إنني ألقي القبض عليك باسم الملكة وأتهمك بالتورّط في مقتل أخيك».

صرخ الرجل الصغير وهو ينظر الينا. «لقد انتهى الأمر! ألم أقل لكما!».

ردّ هولمز قائلاً: «لا تتضايق كثيراً يا سيد شولتو، اعتقد انني

استطيع التعهّد بتبرئتك من هذه التهمة».

قال المفتش بحدّة: «لا تعد كثيراً يا واضع النظريات، لا تعدْ كثيراً، قد تجد الأمر اكثر صعوبة مما تعتقد».

ـ «أنا لن أكتفي بتبرئته يا سيد جونز، بل وسأقدم لك هدية بإسم وبأوصاف أحد الشخصين اللذين كانا موجودين في هذه الغرفة الليلة الماضية. اسمه، وأنا متأكد منه، هو جونثان سمول ان رجل بمستوى ثقافي بسيط، صغير البنية، نشيط الحركة، ورجله اليمنى مبتورة وله رجل خشبية أعطبت من الداخل. ولحذائه الأيسر نعل قديم قاس، واطار حديدي حول الكعب. انه رجل في خريف العمر، لوحت الشمس بشرته وسبق له أن أُدين. هذه الايضاحات القليلة قد تكون مفيدة لك، بالاضافة الى انه فقد كمية من الجلد الذي يغطي باطن يده. أما الرجل الآخر ـ».

سأل أتلناي جونز بسخرية: «آه! الرجل الآخر؟» لكنني لاحظت مباشرة أنه متأثر بأسلوب هولز البالغ الدقة.

قال شرلوك هولز متراجعاً: «انه شخص غريب الاطوار، أتمنى أن أتمكن من تقديم الاثنين اليكم في فترة قريبة. أودّ أن أتحدث اليك يا واتسون».

قادني الى السلم الداخلي وقال: «هذا الحدث غير المتوقع جعلنا نتخلى عن الهدف الأساسي لزيارتنا».

أجبته: «كنت في صدد التفكير في ذلك. لا يجوز أن نترك الآنسة موريستان في هذا البيت المنكوب».

ـ «يجب أن ترافقها الى بيتها. إنها تقيم مع السيدة سيسيل

فورستر في كامبرويل السفلى، المكان ليس بعيداً إذاً. سوف انتظرك هنا إذا رغبت في الرجوع. أم انك متعب؟».

ـ «على الاطلاق. لا اعتقد انني سأرتاح قبل معرفة المزيد حول هذا الموضوع الشيّق، لانني وإن كنت قد عرفت بعض الخشونة في الحياة، لكنني أؤكد لك بأن هذا التتابع السريع للمفاجآت الغريبة هذه الليلة جعلني في حالة من الاضطراب الشديد. ومع ذلك فأنا أرغب في متابعة الامر معك بعد أن قطعت هذه المرحلة».

قال لي: «وجودك سوف يكون خدمة كبيرة لي. سوف نعمل سوياً على حلّ القضية ونترك هذا الذي يدعى جونز يهلّل لوهم ويحاول الوصول اليه. بعد ان توصل الآنسة مورستان، اريدك ان تقصد المنزل رقم ٣ في بنشن لاين وهو يقع على ضفة النهر في لامبيث. البيت الثالث الى الجهة اليمنى هو بيتْ محنّط للحيوانات ويدعى شيرمان. سترى من النافذة ثعلباً برّياً يمسك بأرنب صغير. اقرع البـاب كي توقـظ شيرمـان العجوز وبلّغه سلامي واطلب منه ان يسلمك «طوبي» في الحال. وعليك ان تاتي به الى هنا».

ـ «وطوبي هذا هو كلب على ما أعتقد».

ـ «أجل، إنه كلب مهجّن غير مالوف يتمتع بحاسّة شمّ مذهلة، افضل أن يساعدني طوبي على أن تفعل ذلك كل قوة التحرّي في لندن».

قلت: «ســوف أعود به إذاً. إنها الواحدة بعد منتصف الليل. سأكون هنا قبل الثالثة إذا تمكنت من الحصول على حصان نشيط».

قال هولمز. «وأنا سأحاول استجواب السيدة برنستون والخادم الهنديّ، الذي قال لي تاديوس بأنه ينام في العلية الثانية. ثم أطّلع على أساليب جونز العظيمة وأستمع الى سخريته التي تفتقر الى بعض الكياسة».

- ٧ -

حادثة البرميل

رافقت الآنسة مورستان في عربة الشرطة في طريق العودة الى منزلها. كانت تصرّفاتها في غاية الرقّة، وقد تحمّلت ما حدث بوجه هادىء لأنهـا شعـرت بوجـود من هو أضعف منهـا ويحـاجـة لمساعدتها، لقد رأيتها متألقة وشجاعة بجانب مدبّرة المنزل. لكنها في العربة أصيبت بالاغماء ثم أخذت تبكي بحرارة؛ تلك المغامرة الليلية كانت شديدة القسوة عليها. قالت لي فيما بعد انها وجدتني بارداً وغير ودّي أثناء وجودنا في العربة معاً. إنها لم تفهم الصراع الذي كان يعصف في أعمـاقي، أو الجهد الذي بذلته لكي أكبت مشـاعري. العطف والحب كانا يجذبانني اليها مثلما فعلت يدي حين طلبت يدها في الحديقة. شعرت أن سنوات طويلة من العلاقات الاجتمـاعيـة تعجـز عن حمـلي على الاحساس بطبيعتها العذبة والصادقة كما فعل هذا اليوم المليء بالأحداث الغريبة. لكن كانت هناك فكرتان جعلتا عبارات الودّ تصمت على شفتيّ. إنها في حالة ضعف ويأس، مضطربة المشاعر والتفكير، وكان التصريح بالحبّ في هذه الظروف تطفلاً واستغلالاً لحالتها. والأسوأ من ذلك أنها «غنية». فلو ينجح هولمز في أبحاثه، فإنها سوف تصبح وريثة غنية. فهـل يجـدر بطبيب جراح يتقاضى نصف راتب أن ينتهز فرصة

انفراده بها ليبثها مشاعره؟ الا يصبح في نظرها مجرّد طالب ثروة فظّ؟ لم اجرؤ على تصوّر ان تخطر في بالها فكرة كهذه. فقد صار كنز اغرا. حاجزاً منيعاً بيننا

كانت الساعة الثانية تقريباً حين وصلنا الى بيت السيدة سيسيل فورستر.. كان الخدم غاطسون في النوم منذ ساعات، لكن السيدة فورستر وبسبب اهتمامها البالغ بالرسالة الغريبة التي وصلت الى الآنسة مورستان، كانت تسهر في انتظار عودتها. فتحت لها الباب بنفسها، إنها سيّدة رشيقة في خريف العمر، ولقد شعرت بالراحة حين رايت ذراعها يلفّ خصر الانسة مورستان بحنان وحين سمعت صوتها وهي ترحّب بها بعطف.

لم تكن الآنسة مورستان بالتأكيد مجرّد مربية تتقاضى اجراً بل صديقة تعامل باحترام، تبادلت التحية مع السيدة فورستر التي ألحّت في دعوتي للدخول لكي اقصّ عليها ما جرى. لكنني شرحت لها اهمية المهمّة الموكلة إليّ ووعدتها صادقاً بالزيارة وبأنني سأعلمها بأي تطور يطرا في القضية. وعندما انطلقت بي العربة التفتّ خلسة ورايتهما واقفتين تتحادثان بمودّة، كان الباب نصف مغلق وضوء الصالة يشعّ من وراء الزجاج الملوّن، وشعرت بالراحة لهذه الرؤية السريعة لبيت انكليزي هادىء وسط الخوض في تلك القضية الغامضة التي شغلت الجميع.

كنت كلّما واصلت التفكير فيما حدث، تبدو لي الامور اكثر تعقيداً وغموضاً اخذت استرجع احداث اليوم الغريبة فيما كانت العربة تجتاز الشوارع الهادئة والمضاءة بمصابيح الغاز. المشكلة الاساسية تبدو الآن واضحة: موت النقيب مورستان، اللآلىء،

الاعلان، الرسالة ـ هذه الأمور كلها توضحت. إلّا أنها أوصلتنا الى لغز أعمق وأكثر مأساوية. الكنز الهنديّ، والخارطة الغريبة التي وجدت بين أمتعة موربستان، والمشهد الغريب ليلة وفاة الرائد شولتو، وإعادة اكتشاف مكان الكنز التي تلتها مباشرة جريمة قتل الذي عثر عليه، والظروف الغريبة التي أحاطت بالجريمة، آثار الأقدام، الأسلحة الغريبة، الكلمات المدوّنة على الورقة التي تشبه ما كُتب على خارطة النقيب موربستان ـ إنها بالفعل متاهة لا يجرؤ سوى رفيقي في السكن بموهبته الفريدة على الخوض فيها من أجل التوصل الى حلّها.

يقع شارع بنشن لاين في القسم الأسفل من لامبث. وهو يتألف من بيوت صغيرة مصدعة من طابقين. قرعت الباب عدة مرات في البيت رقم ٣، وأخيراً بدا ضوء شمعة خافت من وراء الستارة، ووجه يلقي نظرة من النافذة العليا.

قال لي الرجل: «اذهب بعيداً أيها المتشرد السكّير. إذا تابعت الضجيج سوف افتح الباب وأترك ثلاثة وأربعين كلباً يهجمون عليك».

قلت له: «لو انك تقلت واحداً منها فقط، فهذا ما جئت من أجله».

صرخ قائلاً: «هيّا اذهب! لدي آلة حادة في هذا الكيس وسوف أدعها تسقط على رأسك إذا لم تهرب».

قلت له بصوت عالٍ: «لكنني أريد كلباً».

ردّ السيد شيرمان بحدّة: « لن أقبل المناقشة! ابتعد لأنني سأرميها قبل أن أكمل العدّ الى الثلاثة!».

لم اكد اقول: «السيد شرلوك هولز» ـ حتى كان لكلماتي تاثير سحري عليه، اغلق النافذة، وبسرعة فتح الباب. كان السيد شيرمان رجلاً كهلاً، طويلاً وهزيلاً، كتفاه منحنيان ورقبته قاسية، ويضع نظارتين زرقاوين.

قال: «ارحّب دائماً باي صديق لشرلوك هولز. تفضّل يا سيدي. انتبه من الغرير إنه يعضّ. آه منك ايها الخبيث، تودّ ان تعضّ هذا السيد؟».

ومدّ الحيوان راسه الكريه فبرزت عيناه الحمراوان من بين القضبان. اضاف السيد شيرمان يقول: «لا تهتم به، إنه يشبه دودة بطيئة الحركة. ليست له مخالب فاتركه يَجُب البيت ليلتهم الخنافس. ارجو الاّ تكون منزعجاً من تصرّفي معك في البداية، لان الأولاد يضايقونني كثيراً، وهم ياتون فقط من أجل أن يقرعوا على الباب لإيقاظي. ما الذي يريده السيد شرلوك هولز، يا سيدي؟».

ـ «إنه يريد كلباً من عندك».

ـ «آه! لا شك انه يريد طوبي».

ـ «إنه في الرقم ٧ إلى اليسار».

وأخذ يتنقل بهدوء والشمعة في يده بين افراد تلك المجموعة الغريبة من الحيوانات التي اجتمعت من حوله. وفي ذلك الضوء الخافت شاهدت عيوناً كثيرة متالقة تحدّق فينا من كلّ قفص. حتى العوارض الخشبية فوقنا كانت مليئة بطيور اخذت تتحرك ببطء وهي ترفع ثقلها من رجل لأخرى لأن الصوت قطع عليها نومها.

كان طوبي حيواناً بشعاً، طويل الشعر ومسترخي الأذنين، وهو

هجين من الكلب السبنيليّ(*)، لونه بنّي وأبيض، يتهادى في مشيته التي تفتقد الى الرشاقة. تناول مني بعد تردّد قطعة سكر أعطاني إياها العالم الطبيعي الكهل، وبعد أن تم التعارف لحق بي الى العربة ولم يبد أي نفور من مرافقتي. كانت الساعة تعلن الثالثة حين وصلت الى بونديتشري لودج. كان الملاكم السابق ماكموردو محجوزاً بصفته شريكاً، وتم نقله هو والسيد شولتو الى المركز، وعند البوابة وقف شرطيّان سمحا لي بالدخول مع الكلب بعد أن ذكرت لهما اسم المفتش جونز.

كان هولمز يقف قرب الدرج يدخّن غليونه ويضع يديه في جيبيه.

قال: «آه، لقد أحضرته معك. انه كلب جيد. أتلناي جونز ذهب بعد أن قام بعرض هائل بعد مغادرتك، لقد ألقى القبض ليس فقط على الصديق تاديوس بل وعلى حارس الباب ومدبرة المنزل والخادم الهنديّ. البيت كله لنا لكنْ هناك شرطيّ في الطابق الأعلى. اترك الكلب هنا ولنصعد معاً».

ربطنا طوبي الى الطاولة وصعدنا السلم. كانت الغرفة كما تركناها، وقد تمت تغطية الجثة بشرشف أبيض. وفي الزاوية وقف الشرطي وقد بدت عليه امارات التعب.

قال رفيقي للشرطي: «أعرني فانوسك من فضلك. والآن ضع قصاصة الورق هذه حول رقبتي بحيث تتدلّى على صدري. شكراً. سأخلع حذائي وجواربي. أرجو أن تحملها الى الطابق السفلي يا

(*) الكلب السبنيليّ. كلب صغير قصير القوائم طويل الشعر متموّجة، كبير الأذنين مسترخيهما

واتسون لانني ساقوم بعملية تسلّق. وارجو أن تغمس منديلي في سائل الكريبوسوت، هذا يكفي. والآن اصعد معي قليلاً الى العليّة».

دخلنا عبر الثغرة وسلّط هولمز الضوء ثانية على آثار الاقدام المرسومة على الغبار.

قال: «أودّ ان تنتبه بشكل خاص الى هذه الآثار. هل تلاحظ فيها شيئاً مميزاً؟».

قلت: «إنها تعود لطفل أو لامرأة صغيرة الجسم».

ـ «وإلى جانب حجمها، هل هناك شيء آخر؟».

ـ «تبدو لي شبيهة بسائر الآثار».

ـ «على الاطلاق. انظر هنا! هذا أثر قدم يمنى في الغبار. الآن سأترك بقدمي العارية علامة بجانبه، ما الفرق بينهما؟».

ـ «أصابع قدمك كلّها مجموعة، بينما يبدو كل إصبع على حدة في الأثر الآخر».

ـ «هذا صحيح. هذا ما اردت الوصول اليه، احفظ هذه النقطة جيداً، والآن تقدم قليلاً نحو هذا الباب وحاول أن تشمّ الإطار الخشبيّ، سوف أبقى في مكاني لانني أحمل المنديل».

نفّذت طلبه واستطعت في الحال ان أميّز رائحة قطران قوية.

ـ «هنا وضع قدمه وهو يحاول الخروج. إذا نجحت أنت في تتبع أثره لا أظن أن طوبي سيجد صعوبة في ذلك. انزل الى الطابق السفلي وأطلق سراحه».

حين خرجت من المنزل كان شرلوك هولمز على السطح، وكنت أراه يشبه سراج ليل هائل الحجم وهو يتقدم ببطء على الحافة ثم اختفى خلف مجموعة من المداخن، لكنه ظهر ثانية ليعود ويختفي في الجهة المقابلة، حين قصدت تلك الجهة رأيته يجلس عند زاوية الأفريز.

صرخ: «أهذا أنت يا واتسون؟».

ـ «أجـل».

ـ «هذا هو المكان. ما هذا الشيء الأسود هناك؟».

ـ «إنه برميل ماء».

ـ «هل عليه غطاء؟».

ـ «أجـل».

ـ هل هناك سلّم في الجوار؟».

ـ «لا».

ـ «يـا له من شخص لعـين! هذا مكان خطر للغاية يجب أن أتمكن من النزول حيث نجح هو في الصعود. انبوب الماء يبدو متيناً. سأفعل ذلك على أي حال».

سمعت صوت جرّ قدميه ورأيت الفانوس وهو ينزلق ببطء عند حافـة الجدار. ثم تمكن شرلوك هولمز بوثبة بسيطة أن يصل الى برميل الماء، ومنه الى الأرض.

قال وهو يضع الجورب والحذاء. «كان من السهل تتبع خطواته، لأن القرميد كان رخواً حيث مشى، وأوقع هذا وهو في عجلة من أمره ممّا يؤكد تشخيصي كما تقولون أنتم الأطباء».

كان يحمل في يده كيساً أو جراباً صغيراً مصنوعاً من ألياف نباتية ملوّنة تزينه بضع حبات خرز، يشبه علبة السجائر، من حيث الحجم والشكل، وبداخله نصف دزينة من أشواك الخشب الداكنة، حادة في طرف ومدوّرة في الطرف الآخرى، كالتي أصابت برتلوميو شولتو.

قال هولز: «هذه أشواك جهنمية. انتبه كي لا تخز نفسك. أنا سعيد لأنني عثرت عليها، لأنه من المحتمل أن تكون الأشواك الوحيدة التي بحوزته. وهكذا يتضاءل خطر أن نجد واحدة منها في جلدك أو جلدي بعد فترة. أفضل الإصابة برصاصة على أن أصاب بها. هل أنت مستعد للمشي مسافة ستة أميال يا واتسون؟».

ـ «بالتأكيد».

ـ «هل ستحتمل رجلك هذا؟».

ـ «آه، أجل».

ـ «هيا يا طوبي! شمّ هذه المحرمة يا طوبي الرائع! شمّها!». قال هذا وهو يضع المحرمة التي غمست في سائل الكرييوسوت تحت أنف الكلب، فيما كان هذا يقف منتصب الرأس بشكل مضحك وكأنه خبير يشم رائحة نوع شهير من الخمر المعتّق. ثم رمى هولز بالمحرمة بعيداً، وربط في طوق الكلب حبلاً قوياً، وقاده الى برميل الماء. انتفض الكلب في الحال وأخذ يعوي بارتجاف وحدّة، وأنفه على الأرض وذيله مرفوع، وانطلق بسرعة متتبعاً الأثر فانشدّ الرسن وأخذنا نجري معه بأقصى سرعتنا.

بدأت تباشير الفجر تطلّ وبدأ النور تدريجياً يكشف الطريق أمامنا. البيت المربع الضخم بنوافذه السوداء العالية والفارغة

وجدرانه الباهتة كان ينتصب حزيناً وبائساً من خلفنا. عبرنا الأرض المحيطة بالبيت، وخضنا في الخنادق والحفر التي كانت تملأها وتقطعها في كل مكان. الأرض وما عليها من أكوام الأوساخ والشجيرات البرية بدت وكأنها مصابة وتنذر بالشؤم ومنسجمة مع المأساة التي حلّت بالمكان.

عند وصولنا الى السور تابع طوبي الركض بمحاذاته وهو يعوي باصرار، ثم توقف أخيراً في زاوية تغطيها شجرة مرّان صغيرة، حيث زُحزحت مجموعة من الحجارة والشقوق صارت بالية ومصقولة من الداخل وكأنها كانت في الغالب تستخدم كسلّم. تسلق هولمز تلك الدرجات وتناول مني الكلب ليضعه في الجهة المقابلة.

وعندما لحقت به أشار الى حجر وقال: «هذه علامة يد صاحب الرجل الخشبية، تستطيع رؤية آثر الدماء على الجصّ الابيض. يا لحسن الحظ! ان المطر لم ينهمر بغزارة منذ البارحة! ستبقى الرائحة على الطريق بالرغم من كثافة السير عليها».

وانا أعترف أيضاً بشكوكي بالنسبة الى العدد الذي لا يحصى من العربات التي عبرت طريق لندن منذ وقوع الجريمة حتى الآن. لكن مخاوفي ما لبثت ان هدأت. لم يتردّد طوبي ولم ينحرف أو ينهار اثناء جريه المتواصل. لا شك أن رائحة الكريبيوسوت النافذة كانت اقوى من كل الروائح الأخرى.

قال هولمز: «لا تظن بأنني أعتمد على نجاحي في هذه القضية على مجرد الصدفة، ان أحد المذنبين داس على السائل الكيميائيّ. لديّ الآن معلومات تخوّلني الكشف عنهما بوسائل عديدة. لكن هذه هي الوسيلة الأكثر تأثيراً، وبما أن الحظّ وضعها بين ايدينا، لا يحقّ لي

ان اتجاهلها. إلّا أنها منعت القضية من التحوّل إلى مشكلة تتطلّب براعة فكرية كما بدت في البداية. كانت ستفضي الى نتيجة افتخر بالوصول اليها لولا هذا الدليل الواضح جداً».

قلت له: «هنالك مجال للفخر اكثر مما تتصوّر. اؤكد لك يا هولز بأنني شديد الاعجاب بالوسائل التي تستخدمها للوصول الى الحلّ المناسب في هذه القضية اكثر من اسلوبك في جريمة القتل في جيفرسون هوب. يبدو لي الأمر الآن اعمق واكثر غموضاً. كيف تستطيع مثلاً أن تضع بثقة اوصاف صاحب الرجل الخشبية؟».

- «يا صديقي العزيز، تلك كانت البساطة بعينها. لن اكون نظرياً، فكل شيء واضح وصريح. ضابطان مسؤولان في كتيبة لحراسة السجن يكتشفان سراً يتعلّق بكنز مدفون. يرسم خارطة الموقع لهما رجل انكليزي يُدعى جوناثان سمول. تذكرُ اننا قرانا اسمه على الخارطة التي كانت بحوزة النقيب مورستان. وهو وقّعها باسمه وباسم شركائه - عصابة الاربعة، كما سماها بأسلوب دراميّ. وبواسطة هذه الخارطة تمكّن الضابطان - أو واحد منهما - من العثور على الكنز الذي نُقل الى إنكلترا دون أن يفي (او يفيا) بشرطٍ كان قد استلم الكنز بموجبه. والآن، لماذا لم يأخذ جوناثان سمول الكنز بنفسه؟ الجواب واضح. على الخارطة تاريخ يعود الى الفترة التي كان فيها مورستان اكثر قرباً من الموقوفين، ولم يأخذ جوناثان سمول الكنز لأنه كان موقوفاً مع شركائه ولا يتمكن من ذلك بالطبع».

قلت: «لكن هذا مجرّد تخمين».

- «بل أكثر من ذلك. انه الفرضية الوحيدة التي تشمل

الأحـداث. فلنحاول رؤية توافقها مع التكملة. ظلّ الرائد شولتو مرتاحاً بضع سنوات، وهو سعيد بحيازة الكنز. ثم تصله رسالة من الهند تسبب له خوفاً كبيراً. ماذا حملت له؟».

ـ «إنها رسالة تقول أن الرجال الذين خدعهم أطلق سراحهم». او انهم هربوا، وهذا احتمال أكبر لأنه كان على علم بالمدة المحكوم عليهم بها، وما كان خروجهم ليفاجئه. ماذا فعل إذاً؟ قرّر حماية نفسه ضد صاحب رجل خشبية ـ وهو أبيض البشرة فأنت تذكر أنه شك في تاجر أبيض البشرة واعتقاداً منه أنه هو أطلق عليه النار من مسدسه. والآن هناك اسم رجل أبيض واحد على الخارطة. الثلاثة الآخـرون من الهنـدوس أو المسلمـين. لا يوجد رجل آخر، لذلك نستنتـج بثقـة أن صاحب الرجـل الخشبيـة هو نفسه جوناثان سمول. هل يبدو لك هذا التحليل خاطئاً؟».

ـ «لا، إنه واضح ودقيق».

ـ «حسنـاً، الآن، دعنـا نضع أنفسنا مكان جوناثان سمول، ولنحـاول رؤية الموضوع من وجهة نظره: وصل الى انكلترا وهو ينـوي استعادة ما يعتبره حقاً له أولاً والانتقام من الرجل الذي أساء اليه ثانية. عرف مكان اقامة شولتو، ومن المحتمل أنه أجرى اتصالات مع شخص يعمل داخل البيت. هناك كبير الخدم، لال راو، الذي لم نقـابله، والذي لا تطلق عليـه السيـدة برنستـون الصفات الجيدة. لكن سمول لم يتمكّن من اكتشاف مكان وجود الكنـز، الذي لم يكن يعـرفه سوى الرائد وخادم أمين مات. علم سمول أن الرائد كان على فراش الموت، وخوفاً من أن يضيع سرّ الكنـز معـه، استطاع تجاوز الحرّاس والوصول الى نافذة غرفة

الرجـل المحتضر، ولم يمنعه من الدخول سوى وجود الولدين ﻓ الداخل. لكنه في نوبة غضب شديد من الرجل عاد الى تلك الغرﻓ أثناء الليل وبحث في أوراقه الخاصة على أمل العثور على مذكّر فيها معلومات حول الكنز، ثم يترك أخيراً تذكاراً لزيارته أي البطاﻗ التي تحمل التوقيع. لا شك انه كان ينوي في حال قتل الرائد أ يترك البطاقة على جسده للتأكيد على ان الجريمة لم تكن جريمـ عادية، لكن الشركاء الأربعة يعتبرونها عملاً لتحقيق العدل. مثا هذه الأفكار الغريبة والشاذة تتكرّر في سجلات الجرائم وهي ﻓ الغالب تقدم دلائل هامة للوصول الى المجرم. هل تتابع ما أقوله؟».

ـ «بكل وضوح».

ـ «والآن ما الذي فعله جوناثان سمول؟ ليس أمامه سوى أ يراقب سرّاً محاولات العثور على الكنز. من المحتمل ان يكون ﻗ غادر انكلترا، وانه كان يرجع في فترات متباعدة. ثم عُثر على الكنز وتمّ اعـلامه بالأمر في الحال. هنا أيضاً نشير الى وجود حليف ﻓ داخل البيت. لن يتمكن جوناثان برجله الخشبية من الوصول اﻟ الغرفة العليا التي اكتشفها برتلوميو شولتو، لذلك فهو يصطحـ معه شريكاً غريباً الى حدّ ما، والشريك يتجاوز هذه المشكلة لكـ يغمس رجله في سائل الكريبيوسوت، وهنا أتى دور طوبي، وها نحـ نتتبع معه الأثر، أنا وأنت أيها الضابط الأعرج الذي يتقاضى نصـﻔ أجره».

ـ «لكن الذي ارتكب الجريمة هو الشريك وليس جوناثا سمول».

ـ «هذا صحيح، ويبدو ان ذلك سبب مضايقة لجوناثان، وهـ

يبدو من مشيته العنيفة التي ظهرت في الآثار التي تركها على أرض الغرفة، لم يكن حاقداً على برتلوميو شولتو وكان يفضل لو اقتصر الأمر على تقييده وكمّ فمه. إنه لا يريد وضع رأسه في حبل المشنقة، لكن لم يعد بالامكان تلافي الأمر: الغرائز الوحشية عند رفيقه كانت السبّاقة فاستخدم السم لتنفيذ جريمته. لقد ترك جوناثان سمول البطاقة وأنزل صندوق الكنز الى الأرض ثم نزل بدوره، هذا هو مجرى الأحداث كما أتصوّرها. أما بالنسبة لشكل جوناثان سمول فانه في خريف العمر وقد لوحت الشمس بشرته لأنه أمضى فترة اعتقاله في جزر اندمانز التي تشبه الفرن. طوله نستطيع قياسه من المسافة بين خطواته، ونحن نعرف انه كان ذا لحية. كان وجود الشعر في وجهه أول ما لفت نظر تاديوس شولتو حين رآه خلف النافذة، لا أعرف عنه معلومات أخرى».

ـ «والشريك؟».

ـ «آه، حسناً، ليس هناك غموض كبير في هذا الأمر. سوف تعلم كل التفاصيل بعد فترة. كم هو منعش هواء الصباح! انظر كيف تطفو تلك السحابة الصغيرة كأنها ريشة وردية من طائر ضخم من طيور البشروس. ودائرة الشمس الحمراء بدأت توسع اطارها فوق مدينة لندن المعتمة. إنها ترسل أشعتها على أشخاص كثيرين لكنني أراهنك أن أحداً منهم ليس في صدد القيام بمهمة تفوق مهمتنا غرابة. كما نشعر بصغرنا ونحن نحمل هذه الطموحات الضيّقة الأفق أمام قوى الطبيعة العظيمة! هل قطعت شوطاً في قراءة جان بول؟».

ـ «تقريباً. حاولت قراءته من خلال كارلايل».

ـ «كان ذلك كمن يتتبع الجدول الى البحيرة الأصلية، إنه يقدم رأيـاً يتصف بالغـرابـة والعمق. انّ البرهان الأساسي على عظمة الانسان الفعلية يكمن في ادراكه لصغره، انه ينمّ كما ترى عن قدرة على المقارنة وحسن الادراك وهذا بحدّ ذاته دليل على عمق المعرفة. هناك أيضاً غذاء جيد للفكر في ريشتر. هل تحمل مسدساً؟».

ـ «معي عصاي».

ـ «من المحتمـل أن تحتاج لها حين نصل إليهما. سوف اترك جوناثان لك، أما الآخر فانني سوف أطلق عليه النار إذا كان مؤذياً».

وأخرج مسدسه ليلقمه الرصاص، ثم أعاده الى جيب سترته الأيمن.

كنا في تلك الأثناء نتبع طوبي في طريق شُيدت عليها منازل شبه ريفية تقود الى العاصمة. ووصلنا الى شوارع كان فيها الشغيلة وعمـال الأرصفة قد بدأوا نهار العمل بحيوية، وكانت المومسات يغلقن نوافـذ بيـوتهن وينظفن مداخلها. في الساحة عند ناصية الشـارع كان النشـاط التجـاري على وشك ان يبدأ، ومن داخل المحلات كان يخرج رجال أشداء يمسحون بأكمامهم لحاهم المبتلّة من غسل وجوههم. والكلاب كانت تحدّق بنا باستغراب، لكن طوبي الذي لا مثيل له لم يلتفت يميناً أو شمالاً بل تابع سيره وأنفه في الأرض، آخذاً بالعواء حين تشتد الرائحة.

قطعنا ستريتهام وبريكستون وكامبرويل ووجدنا أنفسنا أخيراً في كنينغتـون لاين وكنّـا انحـرفنـا عن الطريق الرئيسية لنجتاز الشوارع الفرعية الى الشرق من أوفال. يبدو أن الرجلين اللذين كنّا

نلاحقهمـا سلكـا طريقاً متعرّجة هرباً، على الأرجح، من الأماكن المكتظّة، وهما لم يقطعا شارعاً رئيسياً واحداً، إذا كان هناك شارع فرعي موازيـاً له يستطيعان المرور فيه عند آخر كنينغتون لاين انحـرفـا يسـاراً عبر بوند ستريت ومايلز ستريت. وحيث يصل الشـارع الأخير الى نايتز بلايس توقّف طوبي عن الجري وأخذ يرجع الى الوراء ثم يتقدم وقد انتصبت احدى أذنيه وتدلّت الثانية وهو في حيرة تامة. ثم أخذ يدور وهو ينظر الينا من حين الى آخر، كأنه يطلب تعاطفنا معه في وضعه المحرج.

قال هولمز متذمّراً: «ما أمر هذا الكلب اللعين؟ هما بالتأكيد لم يركبا في عربة ولا في منطاد».

قلت محاولاً ايجاد تفسير: «ربما توقفا هنا لبعض الوقت».

ـ «آه! حسناً، إنه ينطلق من جديد»، قال هولمز ذلك بارتياح. لقد تفقّـد الكلب الرائحة من حوله ثم قرّر الاتجاه أخيراً وأخذ يعدو بحيوية وإصرار لم يظهرهما من قبل. كانت الرائحة أقوى من قبل لأنه لم يلجأ لتقريب انفه من الأرض بل أخذ يشدّ الحبل لكي يزيد من سرعته. ورأيت في بريق عينيّ هولمز انه كان مقتنعاً بأن رحلتنا شارفت على نهايتها.

ركضنـا عبـر شارع «نـاين إلمز» حتى وصلنا الى «برودريك» ومستـودع نلسون الضخم للأخشاب قرب فندق «هوايت إيغل». صار الكلب شديد الاهتياج ودخل من البوابة الجانبية الى داخل الباحة حيث كان النشارون قد بدأوا عملهم، وواصل الكلب جريه عبر النشارة ورقاقات الخشب، يمر في مجاز ضيق ثم في ممر ويدفع بنا بين أكوام الأخشاب، وأخيراً وبعواء المنتصر اندفع نحو برميل

كبير لا يزال على عربة الترولّي التي حملته الى المستودع. انتصب طوبي فوق البرميل الخشبي وقد تدلّى لسانه وأخذ ينظر من واحد الى آخر بانتظار علامة تقدير. كانت اضلاع البرميل وكذلك دواليب عربة الترولي ملطخة بسائل أسود، وكان الهواء كله مشبعاً برائحة سائل الكريبيوسوت.

تبادلت وشرلوك هولمز نظرة مشدوهة ثم استغرقنا في نوبة من الضحك العفوي.

- ٨ -

فرقة
بايكر ستريت
غير النظامية

سألته: «ماذا سنفعل الآن ونجاح طوبيّ لم يعد أمراً مؤكداً؟».

قال هولمز وهو ينزله عن البرميل للخروج من مستودع الأخشاب: «لقد أخطأ بسبب حاسة الشمّ. إذا أخذنا بعين الاعتبار كمية سائل الكريبيوسوت التي تنقل يومياً الى لندن، لن يدهشنا كثيراً أن الأثر الذي تتبعناه اختلط بأثر آخر. وسائل الكريبيوسوت كثير الاستعمال اليوم خاصة من أجل تجفيف الأخشاب، واللوم لا يقع على طوبي».

ـ «إذاً علينا الرجوع الى مكان الرائحة الأصلية».

ـ «أجل، ولحسن الحظ هو ليس بعيداً، من الواضح أن الذي أربك الكلب عند ناصية «نايتز بلايس» كان وجود أثرين في اتجاهين متعاكسين. ونحن تتبعنا الأثر الذي لا يفيدنا، فلم يبق أمامنا سوى العودة وتتبع الآخر».

لم نجد صعوبة في ذلك، فقد عدنا بطوبي الى المكان الذي اختلطت فيه الروائح، حيث أخذ يتأكد من وجود الرائحة الأصلية ثم انطلق بنا في اتجاه جديد.

قلت: «يجب أن ننتبه كي لا يقودنا الى المكان الذي أتى منه برميل الكريبيوسوت».

ـ «لقد فكرت في ذلك، ولكن بامكانك أن تلاحظ أنه لم يترك الرصيف، بينما تم نقل البرميل على الطريق، الآن نحن نتتبع الرائحة الفعلية».

كان طوبي يركض باتجاه النهر مجتازاً شارعي بلمونت بلايس وبونسز ستريت. وعند نهاية شارع برود ستريت قادنا الى الضفة حيث يوجد رصيف خشبي صغير، وصل طوبي الى آخر الرصيف وتوقف وهو يعوي وينظر الى المياه الداكنة.

قال هولمز «لم يسعفنا الحظ، لقد استقلا مركباً».

عدة زوارق شراعية صغيرة وقوارب كانت ترسو الى جانب الرصيف، أخذنا طوبي الى كلّ منها على حدة، وكان يشمّ بإصرار، لكن دون أن يعطي أية إشارة.

بالقرب من الرصيف شاهدنا بيتاً صغيراً من الآجرّ، علّقت يافطة خشبية على احدى نوافذه، ودوّن عليها بخط عريض: «موردكاي سميث»، وتحتها: «قوارب للإيجار بالساعة أو اليوم».. وفوق الباب وضعت يافطة ثانية للإعلان عن وجود زورق بخاريّ ـ وتأكيداً على ذلك وضعت كمية كبيرة من فحم الكوك قرب الحاجز المائيّ. نظر شرلوك هولمز حوله وبدت عليه إمارات التشاؤم، قال: «الوضع سيّء، والرجلان أذكى مما كنت أتوقّع. يبدو أنهما تمكنا من اخفاء أثرهما، يظهر أنهما اتفقا على خطة مسبقة».

كان يتقدم نحو البيت عندما فتح الباب وخرج منه مسرعاً صبي

مجعّد الشعر، في السادسة من عمره، ولحقت به امرأة قوية البنية محتقنة الوجه وترفع ملعقة كبيرة في يدها.

صرخت قائلة: «ارجــع يا جاك لتغتســل. ارجع أيها العفريت الصغير. إذا رجع أبوك ورآك هكذا سيغضب كثيراً»

قال هولــز متـدخــلاً ببراعة. «أيها العزيز الصغير! يا لك من شيطان مورّد الخدين! ماذا تطلب يا جاك؟».

فكّر الصبيّ قليلاً ثم قال: «أطلب شلناً».

ـ «ألا تفضّل شيئاً آخر؟».

أجاب الصبي الذكي بعد تفكير: «أفضّل الحصول على شلنين».

ـ «هذا ما تريد، هيا، خذ! يا له من صبيّ رائع يا سيدة سميث».

ـ «الله يبــارك فيـك يا سيـدي، انه بالفعل كذلك، وصار من الصعب علي الاعتناء به. خاصة بسبب غياب زوجي عن البيت لعدة أيام متواصلة».

قال هولز بخيبة: «هو غائب إذاً؟ هذا مؤسف لانني كنت أود التحدث اليه».

ـ «رحـل منذ صباح البارحة، والحقيقة يا سيدي انني بدأت اشعر بالخوف عليه، إذا كان الامر يتعلق بمركب قد اتمكن من خدمتك».

ـ «كنت أريد استئجار الزورق البخاريّ».

ـ «لكنــه يا سيدي رحل في هذا الزورق. وهذا ما يثير حيرتي. لانني اعـرف انه ليس فيه كمية فحم توصله الى مكان ابعد من

وولويتش ثم تعود به الى هنا. لو انه استخدم مركب نقل البضائع ما كنت أتضايق؛ لأنه كان يقوده أحياناً حتى غريفسند لتوصيل بضاعة معينة وقد يمضي هناك عدة أيام إذا وجد عملاً إضافياً. لكن ما الفائدة من زورق بخاري لا فحم فيه؟».

ـ «قد يكون اشترى فحماً من رصيف آخر».

ـ «ربما يكون فعل ذلك، لكنه لا يرضى بذلك عادة يا سيدي، سمعته عدة مرات يتذمّر من السعر الذي يوضع لبضعة أكياس من الفحم، وبالاضافة الى ذلك، أنا لا أحبّ ذلك الرجل ذو الرجل الخشبية، والوجه البشع واللهجة الغريبة، ماذا كان يريد من زياراته المتكرّرة؟».

قال هولمز وقد فوجىء بالأمر: «رجل برجلٍ خشبية؟».

ـ «أجل يا سيدي، رجل أسمر البشرة ملامحه مريبة وقد جاء لمقابلة زوجي عدة مرات، وهو الذي أيقظه ليلة البارحة، والأدهى من ذلك أن زوجي كان يتوقّع قدومه لأنه كان قد أعدّ الزورق للسفر. أقول لك بصراحة يا سيدي، أنا لست مرتاحة للأمر».

قال هولمز وهو يهز كتفيه: «لكن يا سيدة سميث، أنت تخيفين نفسك بلا سبب، كيف تستطيعين التأكّد من أن صاحب الرجل الخشبية هو الذي أتى في الليل؟ لا افهم كيف تأكدت من ذلك».

ـ «من صوته يا سيدي. إنني أعرف جيداً صوته الخشن والمبحوح، كانت الساعة حوالي الثالثة صباحاً عندما قرع على النافذة وقال: هيا أيها الريّان، حان وقت الإقلاع، فأيقظ زوجي جيم ابننا البكر، وغادرا البيت دون أن يقولا شيئاً لي. ووقفت أسمع

صوت الرجل الخشبية وهي تطقطق على الحجارة».

ـ «وهل كان هذا الرجل وحيداً؟».

ـ «لا أستطيع أن أؤكد لك ذلك، يا سيدي. لكنني لم اسمع أحداً يتكلم سواه».

ـ «المعذرة يا سيدة سميث لانني جئت أطلب الزورق البخاري فقد نصحوني به ـ يبدو انني نسيت اسمه».

ـ «أورورا يا سيّدي».

ـ« آه، يبدو لي انه ذلك الزورق الأخضر بخط اصفر وعريض في الوسط؟».

ـ «لا، ابداً انه زورق صغير الحجم ومتناسق العرض كسائر الزوارق التي تعبـر النهـر. وعليه طلاء أسود جديد يزينه خطان باللون الأحمر».

ـ «شكراً لك. أتمنى أن يعود السيد سميث بسرعة. سوف أقصد ارصفة أخرى على النهر وإذا رايت الأورورا سأخبر زوجك بأنك قلقة عليه. هل قلت ان له مدخنة سوداء؟».

ـ «لا يا سيدي. سوداء ولها اطار أبيض».

ـ «آه، حسنـاً، الجـانبـان سوداوان. صباح سعيد يا سيدة سميث. انظر يا واتسون هذا شخص في زورق صغير، سنطلب منه ان يحملنا الى الضفة الأخرى».

وقـال هولـز وهـو يأخذ مكانه في الزورق: «أثناء التحدث الى اشخـاص ممـاثلين يجب مراعاة امر اساسي: أن لا تدعهم أبداً

يشكون أن ما يدلون به من معلومات له أدنى فائدة بالنسبة اليك. وإلاّ فانهم سيكتمون ما عندهم كالمحار، لكن إذا استطعت ابتكار حجّة معينة كما فعلت منذ قليل، فانك هكذا تتمكن من الحصول على ما تريد».

قلت له. «يبدو أن خطّ سيرنا صار واضحاً».

ـ «ما الذي تفعله إذاً؟»

ـ «أستأجر زورقاً بخارياً وأتتبع الأورورا».

ـ «لكن هذه يا صديقي مهمة صعبة. قد يكون الزورق راسياً في أحد الأرصفة العديدة المنتشرة على جانبي النهر حتى غرين ويتش. وتحت الجسر عدد من أماكن الهبوط التي تشبه المتاهة. وقد يتطلب منّا البحث فيها أياماً عديدة».

ـ «إذاً نستعين بالشرطة».

ـ «لا، أفضّل الاتصال بأتلناي جونز في آخر لحظة. إنه ليس شخصاً سيئاً، وأنا لا أريد القيام بأي عمل يجرح كبرياءه المهنيّ، لكنني أرغب في التوصل الى الحلّ بمفردي بعد الشوط الطويل الذي قطعناه في الطريق اليه».

ـ «هل نعلن عن طلبنا ونسأل مسؤولي الأرصفة؟»

ـ «هـذا أسـوأ بكثير! سيعرف الرجلان أن مطاردتهما بدأت، وسوف يغادران البلاد. وهما على أية حال قد يلجآ الى ذلك، لكنهما لن يستعجـلا في السفر طالما أنهما يشعران بالاطمئنان. في هذه الناحية قد يكون نشاط جونز مفيداً، لأنه بالتأكيد سيدلي بوجهة

نظره حوّل القضيـة الى الصحف اليومية، وسيعتقد الهاربان أن الجميع يبحثون عن رائحة مضلّلة».

سألتـه حين توقف بنـا المركب قرب إصلاحية ميلبانك: «ماذا سنفعل إذاً؟»

ـ «نستقل هذه العربة ذات العجلتين الى البيت، نتناول الفطور ثم ننام حوالي ساعة. لأنه من المحتمل أن نسهر هذه الليلة أيضاً. توقف عند مركز البريد أيها الحوذّي! سوف نحتفظ بطوبي لأننا قد نحتاج اليه ثانية».

توقفت بنا العربة أمام مركز البريد في شارع غراين بيتر، وقام هولمز بارسال برقية.

سألني ونحن في طريقنا الى البيت: «لمن تعتقد أنني أرسلت البرقية؟».

ـ «أنا متأكد من أنني لا أعرف».

ـ «أتتـذكـر فرقـة المفتشـين في شرطة بايكـر ستريت، الذين استخدمتهم في قضية جيفرسون هوب؟».

قلت ضاحكاً: «حسناً!».

ـ «في هذه القضية سيكون لهم دور لا يقدّر بثمن. وإذا فشلوا لديّ وسائل أخرى، لكنني سأجربهم أولاً. تلك البرقية كانت مرسلة الى الملازم المضجر ويغنز، وأعتقد أنه سيكون عندنا مع عصابته قبل أن ننتهي من تناول الفطور».

كانت الساعة ما بين الثامنة والتاسعة، وكنت أعاني من وطأة

الأحـداث المتلاحقة في الليلة الماضية. كنت متعباً ورجلي تؤلمني، فكري مشوّش وجسدي مرهق. لم أكن أتمتع بالحماس المهنيّ الذي كان يحث رفيقي على الاستمـرار، ولم أعتبر الأمر مشكلة ذهنية مجـردة. وبالنسبة لموت برتلوميو شولتو فانني لم أسمع عن هذا الرجل ما يسر ولم أحمل بالتالي كراهية عميقة لقاتليه. لكن موضوع الكنـز مختلف، لأن الكنـز، أو جزءاً منـه هو من حق الآنسـة مورستان، وطالما هناك أمل في استرجاعه كنت مستعداً لتكريس نفسي من أجل ذلك. مع أن نجاحي في ذلك سيبعدها عني نهائياً على الأرجـح. لكنني لا أقبل الحبّ الأناني والتافه الذي يوحي بفكرة مماثلة. إذا كان هولمز يعمل جاهداً للوصول الى المجرمين، فأنا لديّ سبب أقوى يدفعني للعثور على الكنز.

اغتسلت وبـدّلت ملابسي فشعـرت مبـاشرةً بأنني استـرجـع حيويتي ونشاطي. نزلت الى الصالة فوجدت أن هولمز أعدّ الفطور والقهوة.

قال ضاحكـاً وهـو يشـير الى صحيفة أمامه: «يبدو أنّ جونز العنيف وهذا المحرّر الذي يفهم في كلّ شيء وضعا تصوّراً مشتركاً للمشكلة. لكنك سئمت من القضية ومن الأفضل أن تتناول البيض واللحم أولاً».

أخذت منه الصحيفة وقرأت المقالة التي كانت بعنوان «مسألة غامضة في نورروود العليا».

ـ «حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً [كما قال المسؤول] عثر على السيّـد برتلوميـو شولتـو، في بونتيشري لودج، في منطقة نورروود العليـا، قتيـلاً في غرفته في ظروف معقّدة. وحسب ما وصلنا من

معلومــات فان جثــة السيد شولتو لم تكن تحمل آثار عنف، لكن مجموعة ثمينة من المجوهرات الهندية التي ورثها القتيل عن والده سرقت. أول من اكتشف الحادثة كان السيد شرلوك هولز والدكتور واتســون اللذان كانا يزوران البيت برفقة السيد تاديوس شولتو شقيق القتيـل. وللصـدفـة السعيـدة كان السيد أتلناي جونز، الشخصية الشهيرة في فرقة المباحث، موجوداً في مركز الشرطة في نورووبد ووصـل الى مكـان الجريمة في غضون نصف ساعة من وصـول الخبـر، وبموهبته وخبرته المتمرسة بدأ مباشرة بحثه عن المجرمين، وأمر بالقاء القبض على تاديوس شولتو، الى جانب مدبّرة المنزل السيدة برنستون وكبير الخدم الهنديّ الذي يُدعى لال راو وبـوّاب أو حارس يدعى ماكمــوردو. من المـؤكـد أن اللص، أو اللصوص، كانوا يعرفون البيت، والسيد جونز استطاع بمعرفته وموهبته في الملاحظة الدقيقة أن يبرهن بشكل حاسم أن المجرمين لم يدخلوا من الباب أو النافذة بل صعدوا الى سطح البيت ودخلوا من باب صغير الى عليّة ومنها الى الغرفة التي وجدت فيها الجثة. وهذا الواقع، الذي نقل الينا بوضوح، هو اثبات قاطع بأن ما حدث لم يكن عملية سرقة تمت بالصدفة. إن الفائدة المرجوّة من الحضور اليقظ والنشيط لرجال القانون في مناسبات كهذه، تجلّت في وجود ذلك العقل القوي والبارع. ونشير هنا الى ان ذلك الحضور المبدع للسيد جونز هو بمثابة حجّة إضافية لمن يطالبون بلا مركزية مفتشي الشرطة بحيث يصبحون على اتصال أوثق وأكثر فعالية بالقضايا التي من واجبهم التحقيق فيها».

قال هولز وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويتناول قهوته: «اليس هذا رائعاً! ما رأيك؟».

ـ «أعتقد أننا نجونا بأعجوبة ولم يلق القبض علينا في هذه القضية».

ـ «وأنا أيضاً ولكنني لا أضمن سلامتنا الآن إذا انتابته نوبة أخرى من المهارة».

في تلك اللحظة ارتفع صوت جرس الباب في رنين متواصل، وسمعت صوت صاحبة البيت السيدة هدسون تحتج بعنف واضطراب.

قلت وأنا أقف: «بحق السماء يا هولمز، يبدو أنهم يطاردوننا بالفعل».

ـ «لا، الأمر ليس سيئاً إلى هذا الحدّ. إنها فرقة غير رسمية، فرقة الشرطة غير النظامية في بايكر ستريت».

وفيما هو يتكلم تعالى وقع سريع لأقدام عارية على السلم، ولغط أصوات مرتفعة، ثم اندفع الى داخل الصالة اثنا عشر رجلاً يرتدون ثياباً رثة ومتسخة. وبالرغم من دخولهم الصاخب فانهم يعرفون النظام لأنهم وقفوا مباشرة في صف واحد وأخذوا ينظرون الينا بترقّب. واحد من بينهم، وكان أطول من الآخرين واكبر سناً، تقدّم نحونا بتعالٍ بدا مثيراً للضحك في تلك المجموعة الهزيلة المعروفة بسوء السمعة. وقال:

«وصلتنا رسالتك يا سيدي، فأحضرت الرجال في الحال. ثلاثة شلنات وستة بنسات من أجل التذاكر».

فمد هولمز يده ببضع نقود فضية وقال: «تفضل. في المستقبل يا ويغنز يقدم الرجال تقريرهم لك، وأنت تنقله لي، فلا داعي لاقتحام

البيت على هذا النحو مرة ثانية، لكن لا بأس الآن لأن الجميع يجب أن يسمعوا التعليمات إنني أودّ تحديد مكان وجود زورق بخاري اسمه أورورا، يملكه موردكاي سميث، وهو زورق أسود عليه خطان باللون الأحمر، والمدخنة سوداء ولها اطار أبيض. إنه في مكان ما في النهر، وأريد أن يذهب واحد منكم إلى المكان الذي يرسو فيه قارب موردكاي سميث في مواجهة ميلبانك ليخبرنا إذا عاد المركب أم لا. يجب أن توزّعوا العمل بينكم وتبحثوا بدقة على الضفتين. وأخبروني بكلّ جديد. هل هذا واضح؟».

قال ويغنز: «أجل أيها الحاكم».

ـ «الدفع يتمّ كالمعتاد، جنيه إضافي لمن يعثر على الزورق، وهذا أجر يوم مقدّماً. والآن اذهبوا!».

أعطى كل واحد منهم شلناً فنزلوا بضجيج واهتياج، ورأيتهم بعد قليل وهم يتدفقون الى الشارع.

قال هولمز وهو ينهض ليشعل غليونه: «إذا كان الزورق على سطح الماء فانهم سيجدونه. انهم يصلون الى كل الأمكنة، ويرون كل شيء، ويسمعون كلّ ما يدور بين الناس. أتوقع أن يصلني منهم خبر موقع الزورق قبل المساء. وفي هذه الأثناء لا نستطيع شيئاً سوى انتظار النتيجة، لا نستطيع مواصلة البحث إلّا إذا عثرنا على الأورورا أو على السيد موردكاي سميث».

ـ «سأعطي طوبي فضلات الطعام. هل ستنام يا هولمز؟».

ـ «لا، لست متعباً، جسمي غريب فانا لا اذكر انني شعرت بالتعب أثناء العمل، لكن الكسل يرهقني تماماً. سأدخن وأفكر في

هذه القضية غير المألوفة التي عرفناها بفضل تلك الزبونة اللطيفة. تبدو المهمة سهلة لأن ذوي الأرجل الخشبية ليسوا كثيرين، لكن من المؤكد أن الرجل الآخر استثنائي».

ـ «الرجل الآخر ثانية!».

ـ «أنا لا أقصد أن يبقى لغزاً بالنسبة لك، ولكن أنت لا شكّ كوّنت رأياً خاصاً عنه، والآن نذكر المعطيات. آثار قدمين عاريتين صغيرتين، أصابعهما لم يقيّدها حذاء من قبل، وعصا لها رأس حجرية، ورشاقة ملفتة، وأسهم مسمومة صغيرة، ماذا تستنتج من كل هذه المعلومات؟».

قلت معلناً رأيي. «إنه رجل بدائي! قد يكون أحد الشركاء الهنود الذين كانوا مع جوناثان سمول».

قال: «احتمال ضئيل. حين رأيت الأسلحة الغريبة كنت ميّالاً الى التفكير مثلك، لكن الشكل المميّز لعلامات القدمين جعلني أعيد التفكير في الأمر. بعض سكان شبه الجزيرة الهندية لهم أحجام صغيرة، لكن أحداً منهم لم يترك آثاراً كهذه، الهندوسيّ له قدم طويلة ونحيلة، والهندي الذي ينتعل الصندل اصبعه الأكبر بعيد عن سائر الأصابع لأن الشريط الجلدي في الصندل يفصل بينها. والأسهم الصغيرة لا يمكن اطلاقها إلّا بطريقة واحدة، بواسطة قصبة للنفخ. إذاً أين نجد رجلنا البدائيّ هذا؟».

جازفت وقلت: «في أميركا الجنوبية».

مدّ يده وتناول كتاباً ضخماً عن الرفّ

ـ «هذا معجم جغرافي صور حديثاً. ويمكن الرجوع اليه بصفته

المستند الأحدث. ماذا لدينا هنا؟».

«تقع جزر آندمان على بعد ٣٤٠ ميلاً الى الشمال من سومترا، في خليج البنغال».

... هم! هم! ما هذا كله؟ منـاخ رطب، صيْد بحريّ مرجانيّ، أسماك القرش، ميناء كبير، ثكنات للموقوفين، جزيرة رتلاند، أحراج من شجر الحور القطنيّ ـ آه، ها قد وصلنا!

«قد تكون ميزة السكان الأصليين في جزر آندمان أنهم أصغر جنس بشري على الأرض، إلّا أن بعض الأنثربولوجيين يطلقون هذه الصفة على قبائل البوشمن الأفريقية، وهنود ديغر في أميركا، وشعب تيرا ديل فوجيانز. متوسط طول الفرد من سكان تلك الجزر لا يصل الى اربع اقدام وعدد كبير من البالغين أصغر من ذلك بكثير. وهم شعب شرس، وسريع الغضب ومنيع الجانب، مع انهم مخلصون في صداقاتهم عندما ينجح المرء في اكتساب ثقتهم».

ـ «تذكّر هذا يا واتسون. والآن، اسمع:

شكلهم بشع فرؤوسهم ضخمة ومشوّهة وعيونهم صغيرة وشرسة وقسمات وجوههم منفّرة. لهم أقدام وأيدٍ ملفتة بصغرها. مناعتهم وشراستهم افشلتا تماماً كلّ المحاولات التي بذلها المسؤولون البريطانيون لاستمالتهم. كانوا دائماً مصدر رعب لبحارة السفن التي تتحطم بالقرب من شواطئهم، كانوا يحطمون رؤوس الناجين بواسطة العصي ذات الرؤوس الحجرية او يطلقون عليهم أسهمهم المسمومة. وهذه المجازر كانت تنتهي دائماً في احتفال تؤكل فيه اللحوم البشرية».

ـ «شعب لطيف وودّي! اسمع يا واتسون، لو أنّ هذا الشخص ترك على هواه لكـانت الأمور اتخذت مجرى أكثر فظاعة في هذه القضية. أنا متأكد، انه حتى في الوضع الحالي، جوناثان سمول نادم لاستخدامه»

ـ «لكن كيف تسنّى له أن يتخذ رفيقاً كهذا؟».

ـ «لا أستطيع الاجابة على هذا السؤال. لكن بما أن سمول جاء من جزر آندمان لذلك فان وجود هذا الشخص معه لا يثير دهشتنا. لا شك سنعـرف تفـاصيـل أكثر في الوقت المناسب. اسمعني يا واتسون، أنت تبدو مرهقاً تماماً. تمدّد هنا على الأريكة وسأحاول أن أساعدك على النوم».

تناول الكمان من الزاوية وفيما كنت أتمدّد بدأ يعزف لحناً هادئاً وحـالماً وشجياً ـ إنه لحن من تأليفه، على الأرجح، إذ انه يتمتع بمـوهبـة فذة للارتجـال. وكنت أنظر بوضـوح إلى يديه النحيلتين وعلامات الجدّ على وجهه وقوس الكمان وهو يعلو ويهبط في يده. ثم بدا لي أنني أطفو بعيداً على صفحة بحر هادىء من الأنغام حتى وجدت نفسي في دنيا الأحلام ووجه ماري مورستان العذب ينظر اليّ.

- ٩ -

الحلقة المفقودة

لم أستيقظ إلّا في وقت متأخر من بعد الظهر وشعرت بأنني استجمعت قواي ونشاطي. شرلوك هولمز ما زال يجلس تماماً كما رأيته قبل استغراقي في النوم، إلّا أنه كان قد وضع الكمان جانباً وانهمك في قراءة كتاب. نظر إليّ عندما تحرّكت، فرأيت وجهاً عابساً ومضطرباً.

قال لي: «نمت نوماً عميقاً، كنت خائفاً أن يوقظك الحديث الذي جرى هنا».

ـ «لم أسمع شيئاً. لقد وصلتك أخبار جديدة إذاً؟».

ـ «لسوء الحظ، لا. وأعترف بأنني مندهش ومصاب بالخيبة. كنت أتوقع الحصول على معلومات أكيدة في مثل هذه الساعة. جاء ويغنز منذ قليل ليقول لي بأنه لا يوجد أي أثر للزورق البخاري. هذا البحث مثير للأعصاب لأن كل ساعة تمرّ لها أهميتها».

ـ «هل أستطيع أن افعل شيئاً؟ أشعر بأنني نشيط الآن ومستعد للقيام بمهمة ليليّة أخرى».

ـ «لا، لا نستطيع أن نفعل شيئاً الآن. سنكتفي بالانتظار. قد

تصل الرسالة في غيابنا لو خرجنا وهذا يؤدي الى مزيد من التأخير. تستطيع أن تفعل ما تشاء وأنا سأظلّ هنا».

- «سأذهب إذاً إلى كامبرويل لزيارة السيدة سيسيل فورستر، لقد طلبت مني ذلك البارحة»

سأل هولمز وفي عينيه التماعة مرحة: «لزيارة السيدة سيسيل فورستر؟».

- «حسناً ولزيارة الآنسة مورستان أيضاً. كانتا في غاية الشوق لمعرفة ما يحدث».

قال هولمز: «لا تسترسل في سرد التفاصيل أمامهما، فالنساء لسن موضع ثقة - ولا حتى الأفضل من بينهنّ».

لم أرغب في مناقشته في رأيه الفظيع بل اكتفيت بالقول: «سأعود بعد ساعة أو ساعتين».

- «حسناً، أتمنى لك حظاً جيداً! لكن بما أنك ستقطع النهر أرجو أن تعود بطوبي الى صاحبه، لأنني لا أعتقد بأننا سوف نحتاج اليه في وقت قريب»

أخذت طوبي وسلمته إلى عالم الطبيعة العجوز بعد أن أعطيته نصف جنيه ذهبي. في كامبرويل وجدت الآنسة مورستان متعبة من مغامرة الليلة الماضية وفي انتظار سماع ما استجدّ. وكذلك السيدة فورستر كانت ترغب في معرفة تفاصيل القضية، أخبرتهما كلّ ما فعلناه متجنباً الإشارة الى الأجزاء المفزعة من تلك المأساة. ومع أنني تحدثت عن وفاة السيد شولتو، لكنني لم أذكر أمامهما الأسلوب الذي تمت به الجريمة ولا أداة التنفيذ، وبالرغم من كلّ

المعلومات التي حذفتها كان ما تبقّى كافياً لاثارة دهشتهما وذهولهما.

قالت السيدة فورستر بحماس: «هذه رواية' سيدة مظلومة، وكنز يساوي نصف مليون من الجنيهات، ورجل أسود وحشيّ، ومجرم برجل خشبية. انهما يحلّان محلّ التنين التقليديّ او الباشا الشرير».

وأضافت الآنسة مورستان وهي ترمقني بذكاء: «وفارسان هائمان يتوليان عمليات الانقاذ».

ـ «لكن ثراءك يا ماري، متوقف على نتيجة هذا البحث. لا أعتقد أنك متحمسة كما يجب. تخيلي نفسك غنية الى هذا الحد والعالم كله عند قدميك».

اهتز قلبي فرحاً عندما لاحظت أنها لم تبد اعجاباً بهذا الحدث المتوقّع، بل على العكس من ذلك هزّت راسها بكبرياء كما لو أن الأمر لم يكن يثير اهتمامها.

قالت: «ما يثير قلقي هو مصير السيد تاديوس شولتو، ولا اهمية لشيء آخر. أعتقد أن سلوكه كان رقيقاً ومشرّفاً ومن واجبنا أن نبرئه من هذه التهمة الفظيعة التي لا أساس لها من الصحة».

كنت لا أزال في كامبرويل مع حلول المساء، ولم أصل الى البيت إلّا مع بداية الظلام. رأيت كتاب رفيقي وغليونه بجانب الكرسي، لكنني لم أجده هو. اخذت أبحث عن ملاحظة تركها لي، لكنني لم أجد شيئاً.

سألت السيدة هدسون حين صعدت لتنزل الستائر: «يبدو أن السيد شرلوك هولمز خرج؟».

ـ «لا ياسيدي. إنه في غرفته هل تعرف يا سيدي» وأخفضت صوتها لتتابع هامسة: «أنا قلقة على صحته».

ـ «ولماذا يا سيدة هدسون؟».

ـ «إنه غريب الأطوار يا سيدي، بعد خروجك أخذ يمشي ويمشي، جيئة وذهاباً، إلى أن تعبت من صوت وقع قدميه. ثم سمعته يتحدث الى نفسه ويتمتم، وكلما سمع رنين الجرس كان يسرع الى أعلى السلم ويسألني: «من هناك يا سيدة هدسون؟». وهو الآن في غرفته لكنني لا أزال أسمع صوت خطواته. أرجو ألاّ تكون بداية مرض يا سيدي. تجرأت وحدثته عن علاج منعش، لكنه التفت نحوي بنظرة أربكتني ولم أعرف كيف خرجت من الغرفة».

ـ «لا أظن أن هناك ما يوجب القلق يا سيدة هدسون، سبق وشاهدته على هذه الحال من قبل، انه يفكر في مسألة معينة وهذا ما يجعله متوتراً».

حاولت أن أتحدث بلامبالاة مع صاحبة البيت الفاضلة، لكنني كنت قلقاً بدوري، وازداد قلقي وأنا أسمع صوت خطواته من حين الى آخر أثناء الليل، وأنا أعلم مدى معاناته بسبب شدة حماسه وخضوعه لهذا الخمول الالزاميّ.

كان متعباً ومرهقاً وقت الفطور، وعلى خديه احتقان محموم، فقلت له: «أنت تجهد نفسك يا صديقي. سمعتك تمشي أثناء الليل».

أجابني: «لا أتمكّن من النوم، هذه المشكلة الجهنمية تستنفد

كل طاقاتي. من الصعب أن أحتمل أن عاملاً بسيطاً يعيق البحث فيما أصبحت كلّ الأمور في حكم المنتهية. أعرف الرجلين، والزورق البخاري، وكلّ شيء؛ ومع ذلك لم تصلني أية أخبار لقد اتصلت بوكالات أخرى للمشاركة في البحث ولجأت الى كل الوسائل المتاحة لي. النهر بكامله خضع للتفتيش على الجانبين، لكن لا شيء، ولم تصل السيدة سميث أخبار من زوجها أيضاً كلّ هذا سيدفعني قريباً الى الاستنتاج بأنهما اغرقا الزورق، لكن اموراً أخرى تجعلني أرفض هذا الاحتمال».

ـ «أم أن السيدة سميث وضعتنا في بداية طريقة مغلوطة؟».

ـ «أعتقد ان هذا مرفوض. قمت بتحريات حول الأمر، وعرفت أن هناك بالفعل زورقاً خشبيّاً بتلك الأوصاف».

ـ «هل من الممكن أن يكون الزورق صعد في النهر؟».

ـ «فكرت في هذه الامكانية، وهناك مجموعة موكلة بالبحث حتى ريتشموند، إذا لم تصل أخبار اليوم سوف أشارك غداً سعياً للوصول الى الرجلين أكثر من السعي للوصول الى القارب، من المؤكد سنعرف المزيد».

لكن هذا لم يحدث، لم تصلنا كلمة واحدة من ويغنز ومن المجموعات الأخرى. كانت الصحف كلها تتحدث عن مأساة نوروود، وكل المقالات بدت عدائية لتاديوس شولتو المسكين، لكن لا تفاصيل جديدة في أي من تلك المقالات عدا الاشارة الى اجراء استجواب في اليوم التالي. في المساء ذهبت الى كامبرويل لأنقل للسيدتين أخبار فشلنا، وحين عودتي وجدت هولمز نكد المزاج

ومكتئباً. كان بالكاد يردّ على أسئلتي وشغل نفسه طوال السهرة بالقيام بتحليل كيميائيّ معقّد اشتمل على تسخين المعوّجات وتقطير البخار وانتهى بتصاعد رائحة كادت تحملني على مغادرة الشقة. وحتى ساعات الفجر الأولى كنت أسمع صوت خشخشة الأنابيب الذي يدلّ على استمراره في تجربته التي صدرت عنها رائحة كريهة.

باكراً استيقظت مع الفجر وأصبت بخوف ودهشة حين رأيته واقفاً بقرب سريري، كان يرتدي ثياب بحار بالاضافة الى سترة ووشاح أحمر لفه حول رقبته.

قال لي: «سأبحث بنفسي على امتداد مجرى النهر يا واتسون. كنت أفكر في الأمر ولم أجد إلّا طريقاً واحداً للوصول إلى الحلّ. إنه يستحقّ المحاولة على أية حال».

قلت: «أستطيع مرافقتك بالتأكيد».

- «لا؛ بقاؤك هنا في مكاني له فائدة أكثر أهمية. انا لا أودّ الذهاب لأنه من المحتمل وصول أخبار اثناء النهار، مع ان ويغنز لم يكن متحمساً لذلك البارحة، اريدك أن تفتح جميع الرسائل والبرقيات وأن تأخذ المبادرة التي تبدو مناسبة لك في حال وصول أخبار جديدة، هل أستطيع الاعتماد عليك؟».

- «بكل تأكيد».

- «لن يكون بامكانك ارسال أية برقية لي، لأنني لا أستطيع تحديد مكان تواجدي. إذا حالفني الحظ لن أغيب مدة طويلة، ولا بدّ أنني سأحصل على معلومات قبل عودتي».

حان وقت الفطور ولم يطرأ ما هو جديد. تناولت صحيفة

ستاندرد ووجدت فيها مقالة جديدة حول القضية.

«بخصوص مأساة نوروود العليا نشير الى أن الأمور باتت تأخذ مساراً أكثر تعقيداً وغموضاً مما كان مفترضاً في البداية، فقد تبيّن استناداً الى دليل جديد انه من المستحيل أن يكون للسيد تاديوس شولتو أية علاقة بالقضية. وقد تم مساء البارحة اطلاق سراحه مع مدبرة المنزل السيدة برنستون. ولكن يبدو أن لدى الشرطة معلومات تكشف بواسطتها هوية المجرمين الحقيقيين، وهذا ما يتم ملاحقته من قبل آتلناي جونز، من سكوتلاند يارد، بما يتمتع ويشهد له به من نشاط وذكاء. وقد يُصار الى اعتقال أشخاص آخرين في أية لحظة».

قلت في نفسي: «هذه نتيجة مرضية حتى الآن، فصديقنا شولتو صار في أمان. لكن ما هي تلك المعلومات الجديدة، علماً بأن مثل هذا الكلام يقال عادة عندما ترتكب الشرطة خطأ فادحاً».

القيت بالجريدة على الطاولة، لكنني لمحت اعلاناً في عمود الاعلانات الشخصية يقول:

«مفقود ــ المراكبي موردكاي سميث وابنه جيم غادرا رصيف سميث حوالي الساعة الثالثة صباح الثلاثاء الماضي في الزورق البخاري أورورا، وهو أسود اللون وعليه خطّان باللّون الأحمر، ومدخنته سوداء ولها إطار أبيض، وسيدفع مبلغ خمسة جنيهات لمن يقدم معلومات الى السيدة سميث، في رصيف سميث، أو في ٢٢١ ب بايكر ستريت، حول مكان وجود موردكاي سميث المذكور والزورق أورورا».

كان هذا الاعلان بالتأكيد من هولمز. لأن عنوان بايكر ستريت

وحده يؤكّد ذلك. وبدا لي عملاً مبدعاً لأن الهاربين قد يقرأونه ولا يرون فيه أكثر من القلق الطبيعي لزوجة على مصير زوجها المفقود.

مرّ النهار ببطء، وفي كل مرة أسمع فيها طرقاً على الباب أو وقع خطىً رشيقة كنت أعتقد أن هولمز عاد أو أن شخصاً يحمل ردّاً على الاعلان. حاولت ان أقرأ لكن افكاري كانت تنتقل الى قضيتنا الغريبة والى المجرمين المتشابهين اللذين كنّا نطاردهما. هل من المحتمل أن يكون هناك نقص أساسيّ في الاستنتاج الذي وضعه رفيقي؟ وهل من الممكن أن يكون عقله النبيه والمبتكر قد وضع تصوّراً نظرياً استناداً الى مقدمات خاطئة؟ لم يسبق لي أن شاهدته يرتكب خطأ، لكن أذكى المفكرين قد ينخدع أحياناً. إنه باعتقادي قابل للوقوع في الخطأ بسبب شدة تعقيد أسلوبه في التفكير - ورغبته في صياغة تفسير بارع وغريب رغم وجود تفسير مألوف وأكثر بساطة بمتناول يده. لكن، ومن ناحية أخرى، لقد اطّلعت بنفسي على الاثبات، وسمعت الأسباب التي دفعت به الى استنتاجاته. حين ألقيت نظرة على السلسلة الطويلة من الظروف الغريبة، وجدت مجموعة منها عادية بذاتها، لكنها جميعاً تفضي الى الاتجاه نفسه، لم أستطع أن أنكر بأنه لو ثبت عدم صحة التفسير الذي وضعه هولمز، فان الرأي الصائب لن يكون اقل غرابة وإثارة للدهشة.

في الساعة الثالثة من بعد الظهر رنّ جرس الباب بإلحاح، وسمعت صوتاً آمراً في القاعة، وفوجئت حين دخل عليّ السيد أتلناي جونز. كان مختلفاً عن الأستاذ الفظّ والمبدع الذي أشرف على القضية بكل ثقة في نوروود العليا. كانت ملامحه كئيبة، ومشيته تدلّ على التواضع وحتى على الاعتذار.

قال: «يوم سعيد يا سيدي، عرفت أن السيد شرلوك هولمز ليس هنا».

ـ «أجل، ولست متأكداً من موعد رجوعه، لكن لعلك ترغب في انتظاره، تفضل بالجلوس وجرّب هذا النوع من السيجار»

ـ «شكراً، لا مانع لديّ»، ومسح وجهه بمنديل أحمر مزين بالرسوم.

ـ «ويسكي مع صودا؟».

ـ «حسناً، نصف كأس. الطقس حارّ جداً بالنسبة لهذا الوقت من السنة، ولديّ ما يشغل بالي ويثير قلقي. أنت تعرف رأيي في قضية نورووود؟».

ـ «أذكر أنك شرحته مرة أمامي».

ـ «حسناً، أنا مُجبر الآن على اعادة التفكير فيه. لم أكد أحكم الطوق حول السيد شولتو حتى انسلّ فجأة عبر ثغرة في الوسط استطاع أن يقدم دليل براءة لا مجال للطعن فيه. فهو منذ غادر غرفة أخيه كان دائماً برفقة شخص أو آخر. لذلك ليس من الممكن أن يكون هو الذي تسلق الجدار الى السطح لدخول الغرفة. هذه قضيـة غامضة جداً. وسمعتي المهنية في خطر. أكون سعيداً لو حصلت على بعض المساعدة».

ـ «كلنا نحتاج الى مساعدة أحياناً».

قال بصوت أجشّ يوحي بالثقة: «صديقك شرلوك هولمز رجل رائع يا سيدي. إنه لا يقبل الفشل. عرفته من قبل وهو يتناول قضايا عديدة ولم أر بعد القضية التي يعجز عن ايجاد حلّ لها. إنه فريد

في أسلوبه وربما يكون سريعاً في التوصل الى نظرياته، لكنه على أية حال سيصبــح مفتشاً يبشر بالنبوغ والنجاح، وأنا لا أتورع عن اعلان ذلك. لقد وصلتني برقية منه هذا الصباح، وفهمت منها أنه توصل الى دليل ما في القضية. هذه هي البرقية».

تناول البرقية من جيبه وسلّمني إياها، كانت مرسلة من بوبلار في الساعة الثانية عشرة ظهراً، وهي تقول:

«إذهب الى بايكر ستريت في الحال. في حال تأخّري انتظرني هناك أكاد أحكم الوثاق حول عصابة شولتو. تستطيع مرافقتنا الليلة إذا أردت أن تكون حاضراً في المرحلة الأخيرة».

قلت. «هذه البرقية تبشّر بالخير. إنه بالتأكيد تمكّن من التقاط الرائحة ثانية».

قال جونز بارتياح ظاهر: «آه، هو أيضاً كان واقعاً في الخطأ. حتى الأفضــل بيننا يتعرّض للتضليل أحياناً، بالتأكيد قد يكون إعلانه هذا إنذاراً كاذباً لكن واجبي كرجل قانون يحتّم عليّ ألّا اترك أية فرصة متاحة لي. هناك شخص يطرق الباب، لعله هو».

سمعنا وقع خطى ثقيلة على السلم، وصوت أنفاس رجل اختلطت باللهاث وكأنه يحاول أن يسترجع تنفسه الطبيعي بصعوبة توقف بضع مرات وكأن صعود السلم كان شاقاً بالنسبة له، ثم وصل إلى الصالة أخيراً: شكله كان يتلاءم مع الأصوات التي سمعناها: رجل كهل، يرتدي زيّ البحّارة، وسترته القديمة مزرّرة حتى رقبته. ظهره كان منحنياً، وركبتاه ترتجفان، وتنفسه يدل على إصابته بربو حاد. وفيما كان متكئاً على عصا غليظة من خشب السنديان كان كتفاه

يرتفعان ويهبطان بجهد لدفع الهواء الى رئتيه. ألقى على رقبته شالاً ملوناً، ولم أتبينّ من وجهه سوى عينين سوداوين تلتمعان ذكاءً، ويغطيهما حاجبان كثيفان من الشعر الأبيض، وسبلتان جانبيتان رماديتان. بدا لي أنه بحار قدير أوقعه الفقر والشيخوخة.

قلت له: «ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك يا سيدي؟».

نظر حوله ببطء كما يفعل الرجال المسنون وقال: «هل السيد شرلوك هولمز هنا؟».

ـ «لا، لكنني أحل مكانه، تستطيع أن تقول لي ما تحمله اليه».

ـ «يجب أن أخبره شخصياً بالأمر».

ـ «قلت لك أنني أحل مكانه. هل يتعلق الأمر بقارب موردكاي سميث؟».

ـ «أجل، أنا أعرف جيداً مكانه. وأعرف مكان وجود الرجلين اللذين يبحث عنهما. وأعرف مكان الكنز. أعرف كلّ شيء عنه».

ـ «قلْ لي ماذا تعرف إذاً وأنا سأنقل كل المعلومات اليه».

قال بعناد فظ: «يجب أن أخبره شخصياً بالأمر».

ـ «حسناً، يجب أن تنتظره إذاً».

ـ «لا، لا، لن أضيّع نهاراً بطوله اكراماً لأحد. إذا كان السيد هولمز ليس هنا، عليه أن يكتشف الأمر بنفسه. أنا لا يهمني أحد منكما ولن أتفوّه بكلمة واحدة».

مشى متثاقلاً نحو الباب، فأسرع أتلناي جونز ووقف أمامه قائلاً:

- «مهـلاً يا صديقي، انـك تعرف معلومات هامة، ولن تخرج هكذا، سوف نبقيك هنا، رضيت بذلك أم لا، حتى عودة صديقنا».

أسرع الكهل قليلاً باتجاه الباب، لكنه أدرك أنه لا جدوى من مقاومته لأن أتلناي جونز كان واقفاً يسدّ الباب أمامه.

صرخ وهـو يضرب الأرض بعصاه: «ما هذه المعاملة السيئة! أتيت إلى هنا لمقابلة رجل نبيل، وأنتما تمسكان بي وتعاملانني على هذا النحو، أنا الذي لم يسبق لي أن رأيتكما من قبل!».

قلت له: «لن يكون وضعك سيئاً. سوف نعوّض لك وقتك الذي ضاع. اجلس هنا على الأريكة ولن تنتظر طويلاً معنا».

جلس وهـو مقـطّب الجبـين وأسند رأسه على راحتيه. تابعت وجونز التدخين وتبادل الحديث، وفجأة سمعنا صوت هولمز يقول لنا: «تستطيعان أن تقدما لي سيجاراً أيضاً».

أجفلنا صوته ورأيناه يجلس بجانبنا ينظر الينا بسعادة ومرح، قلت له مذهولاً: «هولمز! أنت هنا! لكن أين هو الرجل الكهل؟».

قال وهو يحمل كتلة من الشعر الأبيض: «ها هو الرجل الكهل، ها هو: شعر مستعار، شاربان، حاجبان وكل شيء. كنت أعتبر أن تنكري معقولاً لكنني لم أتوقع أن يخوض مثل هذه التجربة بنجاح».

قال جونز مبتهجاً: «أيها المحتال! أنت ممثل ناجح وفريد من نوعـه، لقد أجدت ذلك السعال الذي يعاني منه نزلاء بيوت البرّ، ورجلاك الضعيفتان تساويان عشرة جنيهات اسبوعياً. لكن انتبه

فلقد شعرت بأنني رأيت من قبل ذلك اللمعان في عينيك. أنت لم تتفوق علينا بسهولة كما رأيت».

قال وهو يشعل سيجاره «أمضيت النهار في اعداد هذا الزيّ، هناك مجموعة كبيرة من المجرمين تعرفني الآن، كما تعلمان ـ خاصة حين بدأ صديقي هنا في نشر مجموعة من القضايا التي توصلت الى إيجاد حلول لها. لذلك فأنا لا أستطيع خوض الحرب إلّا تحت غطاء زيّ تنكّري بسيط كهذا. هل وصلتك برقيتي؟».

ـ «أجل، ومن أجل ذلك أتيت».

ـ «ما هي أخبار القضية عندك؟».

ـ «لم تصل الى نتيجة بعد. لقد أطلقت سراح اثنين من الموقوفين، وليس لديّ أيّ دليل ضدّ الاثنين الآخرين».

ـ «لا بأس، سأعطيك اثنين بدلاً منهما. لكن عليك أن تضع نفسك بتصرّفي. ستحصل على الثناء الرسمي كلّه، ولكنني أريدك أن تتصرف كما أشير عليك. هل أنت موافق على ذلك؟».

ـ «تماماً، إذا ساعدتني في القبض على الرجلين».

ـ «حسناً أريد أولاً قارباً سريعاً للشرطة ـ زورقاً بخارياً ـ يكون متوقفاً عند ويست مينستر في السابعة مساءً».

ـ «هذا سهل. هناك دائماً زورق في هذا الوقت، لكنني سأجتاز الشارع الآن وأتصل بالمركز هاتفياً للتأكّد من ذلك».

ـ «وأريد أيضاً رجلين قويّين في حال واجهتنا مقاومة»

ـ «سيكون هناك رجلان أو ثلاثة في الزورق، وماذا أيضاً؟»

ـ «عندما نلقي القبض على المجرمين سنضع يدنا على الكنز. اعتقد أن صديقي يودّ أن يأخذ الصندوق الى السيدة الشابة التي تمتلك نصف محتوياته. فلتكن أول واحدة تفتحه. أليس كذلك يا واتسون؟».

ـ «سأكون في غاية السعادة».

قال جونـز وهـو يهـزّ رأسه: «هذا إجراء غير عاديّ. غير أن القضية كلها غير عادية، ولا بأس في التغاضي عنه. ولكن يجب أن يسلّم الكنز كله فيما بعد الى السلطات المختصّة الى أن ينتهي التحقيق».

ـ «بكـلّ تأكيـد. هذا عادي. ولكن هنـاك نقـطة أخرى، أودّ الحصول على عدة تفاصيل حول هذه العملية من جوناثان سمول شخصيـاً، فأنت تعـرف انني احبّ معرفة ادقّ التفاصيل في كلّ قضية اتولّى التحقيق فيها. ارجو الّا يكون لديك مانع بأن التقي به على نحـو غير رسمي إما هنا في غرفتي او في مكان آخر طالما انه سيكون تحت حراسة كافية؟».

ـ «حسناً، انت سيّد الموقف، لم يثبت لديّ بعد وجود جوناثان سمـول هذا لكن إذا نجحت انت في القبض عليه لا ارى كيف أستطيع أن أمنعك من مقابلته».

ـ «كل شيء مفهوم إذاً؟».

ـ «تماماً، هل هناك شيء آخر؟».

ـ «يبقى انني أصرّ على بقـائـك لتناول العشاء معنا. سيكون

الطعـام جاهـزاً خلال نصف ساعـة. لدينـا محار ودجاج وعدة زجاجات من النبيذ الأبيض ـ واتسون لم يتسن لك بعد أن تكتشف مواهبي كمسؤول عن البيت».

- ١٠ -

نهاية
ساكن الجزيرة

ساد العشــاء جوّ مرح، كان هولمز يجيد أصول الحديث حين يشــاء، وفي تلك الليلة أتحفنـا بحـديثه الشيّق. كان في حالة من النشاط الذهني والعصبيّ، ولا أذكر أنني رأيته على هذا القدر من التــألّق من قبـل. تنــاول في حديثــه مجمـوعـة من المـوضوعات ـ المسرحيـات الأعـاجيبية، وصناعة الفخار في القرون الوسطى، وكمــان ستراديفاريوس، والبوذية في سيلان، والسفن الحربية في المستقبـل ـ وأعـطى كل موضــوع حقّــه كما لو أنه أعدّ دراسة مخصّصة حوله، مزاجه المبتهج كان ردّة فعل على فتوره الكئيب في الأيام الماضية. وأتلناي جونز كان أيضاً يحبّ الاختلاط بالآخرين في ساعات الراحة وبدا مولعاً بالطيّب من المآكل. وبالنسبة لي كنت سعيداً بقرب نهاية مهمتنا، ولقد أثر عليّ هولمز أيضاً بمرحه. وأثناء العشاء لم يشر أي منا الى السبب الذي جمعنا.

وبعـد رفع الأطباق، ملأ هولمز ثلاثة كؤوس من البورت وقال: «نشرب نخب نجـاح خطتنا. والآن حان الوقت للذهاب. هل معك مسدس يا واتسون؟».

ـ «لدي مسدسي القديم منذ أيام الخدمة العسكرية».

ـ «من الأفضل أن تأخذه معك إذاً. يجب أن نكون مستعدّين لكلّ طارىء. يبدو أن العربة في انتظارنا عند الباب، لقد طلبتها لتصل في السادسة والنصف».

كانت الساعة السابعة والنصف تقريباً حين وصلنا الى رصيف ويستمينستر ووجدنا الزورق البخاري في انتظارنا أخذ هولمز يتأمّله ثم سأل جونز قائلاً: «هل في المركب علاقة تدلّ على أنه بوليسيّ؟».

ـ «أجل، ذلك الضوء الأخضر في جانبه».

ـ «انزعه إذاً».

وبعد اجراء هذا التعديل البسيط، صعدنا على متن الزورق، ورفعت الحبال. جلسنا نحن الثلاثة في المؤخرة، ووقف أحد الرجال عند الدفّة، بينما تولى آخر الاشراف على المحركات، وجلس مفتشان قويّا البنية في المقدمة.

سأل جونز: «إلى أين؟»

ـ «إلى البرج. اطلب منهم التوقف مقابل حوض جاكوبسون».

كان الزورق سريعاً جداً. فقد انطلقنا بجانب خطوط طويلة من مراكب نقل البضائع التي بدت لنا وكأنها متوقفة. ابتسم هولمز بارتياح ونحن نتجاوز زورقاً بخارياً آخر ونتركه خلفنا.

قال: «يجب أن نتمكن من اللحاق بأي مركب في النهر».

ـ «ليس تماماً الى هذا الحدّ. لكنْ هناك عدد قليل من الزوارق التي تتفوّق علينا بالسرعة».

ـ «يجب ان نتمكن من اللحاق بالأورورا، وهو زورق معروف بسرعته. سأخبرك يا واتسون كيف تطوّرت الأمور. أنت تذكر كم كنت متضايقاً لأن عائقاً بسيطاً وقف في طريقي؟».

ـ «أجـل».

ـ «منحت تفكيري فترة من الراحة التامة عبر الانهماك في القيام بتجربة كيميائية. أحد كبار رجال الدولة عندنا قال مرة إن تغيير العمـل هو أفضـل راحة ـ وهكذا كان. عندما نجحت في تذويب الهيدروكربون عدت الى مشكلة عائلة شولتو وأعدت التفكير فيها منذ البداية، كان رجالي يجوبون النهر صعوداً ونزولاً دون فائدة. لم يكن الزورق متوقفاً في أي مرسى أو مكان للوقوف، وهو لم يعد الى مرساه الخاص. ومن الصعب أن يكونوا قد أغرقوه لإخفاء آثارهم، مع أن هذا الاحتمـال يظل وارداً في حال فشلت كل الاحتمـالات الأخرى. كنت أعرف أن سمول يتمتع بقدر من الذكاء لكنه يعجز عن التفكير البالغ الدقّة، فهذا يتطلّب تعليماً عالياً. ثم فكّرت أنه أمضى فتـرة في لنـدن ـ كمـا تبـيّن لنا بأنه كان يراقب باستمرار بونديتشري لودج ـ لذلك هو لن يتمكن من مغادرة مخبئه بناء لقرار مفاجىء، فهو يحتاج الى بعض الوقت، لنهار مثلاً كي يرتّب أموره. على أية حال، هكذا تبدو احتمالات ما وقع من أحداث».

قلت له: «لكن هذا التصـوّر يبـدو ضعيفاً في نظري. لأنه من المحتمل أن يكون قد رتّب أموره قبل البدء بالقيام بالرحلة».

ـ «لا، لا أعتقد ذلك، هذا الملجأ هو بالنسبة له مأوى قيّم لن يتخـلّى عنـه إلاّ في حال التأكّد من أنه لم يعد بحاجة اليه. وهنا تبادرت الى ذهني مسألة أخرى. لا شكّ أن جوناثان سمول شعر

بأن شكل مرافقة الغريب، مهما حاول أن يغطيه بالثياب، سوف يلفت الأنظار وقد يشار اليه بأن له علاقة بمأساة نوروود. كان ذكياً بالقـدر الكـافي لينتبـه الى هذه المشكلة. فغادر هو ومرافقه مكان تواجدهما أثناء الليل وكان عليهما الرجوع قبل ضوء النهار. كانت الساعة حوالي الثالثة صباحاً عندما جاءا لأخذ الزورق كما قالت لنـا السيدة سميث. وبعد حوالي ساعة يطلع النهار ويبدأ بعض الناس أعمالهم، لذلك أعتقد انهما لم يقصدا مكاناً بعيداً، أعطيا سميث مبلغاً كبيراً كي يلزم الصمت، وحجزا زورقه من أجل الهروب في المـرحلة الأخيرة ثم رجعا بسرعة الى مخبئهما ومعهما صندوق الكنز. وبعد عدة أيام حين يتسنّى لهما الاطلاع على وجهة النظر السـائـدة من خلال الصحف، وفيمـا إذا كانت تدور الشبهـات حولهما، سوف يستقلاّن الزورق تحت ستار الظلام الى باخرة في غرايفسند أو داونز، وهما بالتأكيد أعدّا العدّة للقيام برحلة طويلة الى أميركا أو إلى الجزر المستعمرة القريبة منها».

ـ «لكن ماذا عن الزورق؟ هذا لا يمكنهما أخذه الى المخبأ».

ـ «هذا صحيح. أعتقد انه ليس بعيداً بالرغم من أننا لم نعثر عليـه. وضعت نفسي مكان سمول وأخذت أفكر بما يتمتع به من مقدرة، سيظن أن ارجاع الزورق الى المرسى يجعل البحث عنهما سهـلاً فيمـا إذا قررت الشرطة تتبع اثرهما. فكيف إذاً يستطيع اخفاء الزورق وجعله في الوقت نفسه في متناول اليد عند الحاجة اليه؟ أخذت أفكر ماذا افعل لو كنت مكانه. لم أتوصل إلاّ إلى طريقة واحـدة: أقوم بتسليم الزورق الى شخص يتولى بناء القوارب أو تصليحهـا وأعـطيه تعليمات لإجراء بعض التعديلات الطفيفة في

الزورق. ثم يؤويه هو في السقيفة أو الباحة، ويكون بالتالي بعيداً عن الأنظار، وبذلك لن يستغرق تحريكه ثانية إلّا ساعات قليلة»

- «هذا يبدو بسيطاً جداً».

- «إن هذه الأمور البسيطة هي الأكثر قابلية للإهمال. وقرّرت تبنّي تلك الفكرة فبدأت بارتداء زيّ البحّار هذا وأخذت أسأل في كلّ الأحواض على امتداد مجرى النهر. وبعد خمسة عشر أو ستة عشر موقعاً وصلت الى حوض جاكوبسون فعلمت أن شخصاً برجل خشبية سلّم لهم الأورورا منذ يومين، وأشار إلى أنه مصاب بعطل بسيط في الدفّة، وقال لي كبير العمال: «ليس هناك أي عطل في الدفّة، ها هو هناك بالخطّين الأحمرين». وفي تلك اللحظة أتى موردكاي سميث المالك المفقود. وكان في حالة سيئة من كثرة تناول الخمر، لم أكن لأعرفه بالطبع لولا أنه أعلن عن اسمه واسم زورقه وقال: «أريده هذه الليلة في الساعة الثامنة. انتبه في الساعة الثامنة تماماً، لأن معي سيدين لا يقبلان الانتظار». لا شك أنهما دفعا له بسخاء، إذ بدا أنّ معه فائضاً من النقود وهو يوزّع الشلنات على العمّال.

تبعته لمسافة قصيرة لكنه دخل الى إحدى الحانات' قررت العودة الى الحوض؛ وأنا في طريقي اليه التقيت بأحد رجالي فوضعته حارساً على الزورق عليه أن يقف عند حافة الماء ويلوح لنا بمنديله حين يتحرك الزورق. سنكون في انتظاره وأنا أعتقد أننا سنتمكن من القبض عليهم جميعاً وعلى الكنز أيضاً».

قال جونز: «لقد وضعت خطة دقيقة سواء كان الرجلان مجرمين أم لا، لكن لو كان الأمر بيدي لكنت وضعت فرقة من الشرطة في

حوض جاكوبسون وألقيت القبض عليهم جميعاً حين وصولهم».

ـ «لكنك لن تنجح في ذلك. سمول يتمتع بقدر من الدهاء، لذلك فهو سيرسل شخصاً في البداية ولو صادف وجود ما يثير الريبة، فانه سيبقى مختفياً لأسبوع آخر».

قلت لهولمز: «كان بامكانك ملاحقة موردكاي سميث الذي كان سيقودك الى المخبأ».

ـ «في هذه الحالة كنت سأضيع وقتي لأنني متأكد بأن هناك احتمال واحد في المئة أن يكون سميث على اطلاع على مكان المخبأ. وطالما أن لديه الخمرة والنقود لماذا يطرح أسئلة؟ إنهما يرسلان اليه بما يجب عليه أن يفعل، لقد فكرت بكل الاحتمالات، وهذا هو أفضل أسلوب ممكن».

فيما كنّا نتحدث كان الزورق يجتاز مجموعة كبيرة من الجسور المشيّدة فوق نهر التايمز. وبعد أن تركنا المدينة كانت أشعة الشمس الأخيرة تضيء الصليب على قبّة كنيسة القديس بولس. ولم نصل الى البرج إلّا مع الغروب.

قال هولمز وهو يشير الى مجموعة من الصواري وحبال الأشرعة على الضفة التي تقع عليها «سمارّي»: «هذا هو حوض جاكوبسون. يجب أن نمكث هنا ونتحرك ببطء شديد تحت ستار قوارب البضائع هذه». وتناول منظاره الليلّي من جيبه وأخذ يراقب الشاطىء، ثم قال: «أرى الحارس في مكانه لكنه لا يرفع منديلاً».

قال جونز بحماس: «ولم لا نتقدم في النهر مسافة وننتظرهم». كان الجميع متحمسين، حتى رجلا الشرطة والبحارة، الذين لم تكن

لديهم سوى فكرة غامضة عمّا يدور حولهم.

ردّ هولمز: «لا يحقّ لنا أن نعتبر أي شيء أكيداً، فمع ان احتمال ابحارهم في اتجاه مجرى النهر هو الأرجح، لكننا لسنا متأكدين من ذلك. ونحن من موقعنا هذا نستطيع مراقبة مدخل الحوض دون أن نلفت الأنظار، سيكون الليل صافياً وينير ضوء القمر لنا الطريق يجب أن نمكث حيث نحن، انظروا الى البعيد الى ذلك الجمع من الناس، يسيرون على ضوء مصابيح الغاز».

ـ «هؤلاء عمّال الحوض، لقد انتهوا من عملهم».

ـ «محتالون وسخون، لكنني أعتقد أن في أعماق كلّ منهم وميض خالد. هذا لا يبدو على ملامحهم عندما تنظر اليهم، وليست هناك أية فرضية بديهية للدلالة عليه. لا شك أن الانسان لغز غامض».

قلت: «البعض يصفونه بأنه روح متجسّدة في حيوان».

قال هولمز: «وينوود ريد يعالج الموضوع جيداً، إنه يشير الى أن الفرد هو كناية عن احجية لا حلّ لها، لكن المجموع يصبح حقيقة رياضية. أنت لا تستطيع مثلاً أن تتنبأ بعمل سيقدم عليه انسان ما، لكنك تستطيع أن تقول بدقة ما الذي تنوي القيام به مجموعة من الناس. الأفراد يختلفون، لكن النسب تظلّ ثابتة، هكذا يقول الاحصائيّ. لكن هل هذا منديل؟ هناك بالتأكيد رفرفة بيضاء بعيدة».

قلت بصوت عال: «أجل، هذا رجلك.. أستطيع رؤيته بوضوح».

قال هولمز: «وها هو الأورورا، انه منطلق كالشيطان! بالسرعة

القصوى أيها المهندس الحق هذا الزورق البخاري بالضوء الأصفر! لن أغفر لنفسي أبداً لو أفلت منّا!».

انسلّ الزورق بخفاء من مدخل الحوض وتمكن من الانزلاق بين مركبين أو ثلاثة، كان ينطلق بسرعة هائلة حين تمكّنا من رؤيته. كان يبحر باتجاه مجرى النهر، بالقرب من الضفة، أخذ جونز يتأمله بانقباض وهو يهزّ رأسه، ثم قال: «انه سريع جداً وأنا لست متأكداً من أننا سنلحق به».

قال هولمز وهو يشد على أسنانه: «يجب أن نلحق به. أكثروا من الوقود! اجعلوا الزورق يندفع بكلّ طاقته! حتى لو أحرقناه، يجب أن نمسك بهم!».

صرنا على مسافة قريبة من الأورورا، المحركات كانت تهدر والآلات القوية تحدث أزيزاً وقعقعةً كأنها قلب معدني ضخم. المقدمة العالية والحادّة كانت تشق طريقها عبر مياه النهر الهادئة وترسل تموّجات على جانبي الزورق، ومع كل ارتجافة في المحركات كان الزورق ينتفض ويرتعش كأنه كائن حيّ، مصباح أصفر واحد كبير كان يرسل شعاعاً طويلاً مرتجفاً في الضوء أمامنا. وفي المدى البعيد بدا الزورق الأورورا كتلة قاتمة على سطح الماء، ودوامة الزبد الأبيض التي انتشرت خلفه تدل على مدى سرعته. اجتزنا قوارب لنقل البضائع وبواخر ومراكب تجارية، ندخل بينها ثم نتخطّاها، نتقدم خلف هذا الزورق أو نلتفّ حول الآخر. سمعنا أصواتاً كثيرة تلقي علينا التحية في الظلام. والأورورا لا يزال يهدر أمامنا.

صرخ هولمز وهو يطلّ على غرفة المحرّكات واللمعان القويّ الذي

يندفع من داخلها يشعّ على وجهه حتى بدا كنسرٍ ضار: «أكثروا الكمية يا رجال! أكثروا الكمية! اجمعوا ما استطعتم من البخار!».

قال جونز وهو يحدق باتجاه الأورورا «أعتقد أنّنا نزداد قرباً منه».

قلت: «أنا متأكد من ذلك. سوف نلحق به في غضون دقائق معدودة».

في تلك اللحظة ولسوء حظّنا مرّت بيننا باخرة تقطر وراءها ثلاثة قوارب، تفادينا الاصطدام بها بتغيير الدفة بسرعة، ثم درنا حولها وتابعنا مطاردة الأورورا الذي كسب مسافة تفوق المائتي يارد. لكنه كان لا يزال على مرأى ابصارنا، فيما المساء المعتم والمتقلّب كان يتحوّل الى ليل صافٍ تزين النجوم سماءه، مراجل المحركات كانت مجهدة الى أقصى درجة، والغطاء الضعيف كان يهتزّ ويصدر صريراً من الطاقة العنيفة التي تدفع بزورقنا الى الأمام. انطلقنا بمحاذاة أرصفة ويست إنديا، ثم وصلنا الى دبتفورد ريتش، ودرنا حول جزيرة دوغز، صارت الكتلة المعتمة أمامنا أكثر وضوحاً في شكل الأورورا الجميل. سلّط جونز النور الكاشف على الزورق كي نتبيّن بوضوح ملامح الأشخاص الذين يحملهم. أحدهم جلس عند الدفّة، وضع بين رجليه شيئاً أسود وانحنى فوقه، وبالقرب منه رأينا كتلة سوداء بدت كأنها كلب «نيو موند لند». الصبي أمسك بذراع الدفّة، وأمام وميض الفرن الأحمر كان سميث يجرف الفحم باصرار وهو عاري الصدر. ربما شكوا في البداية حول ما إذا كنّا نلاحقهم أم لا، لكنهم الآن تأكدوا من ذلك ونحن نقتفي أثرهم في

كلّ انحراف أو انعطاف يقومون به. حين وصلنا الى غرينويتش كنا على بعد حوالي ثلاثمئة خطوة خلفهم، لقد طاردت مخلوقات عديدة في بلدان مختلفة خلال حياتي المهنية المتنوّعة، لكنه لم يسبق لأي نشاط قمت به أن منحني تلك الرعشة العميقة كهذه المطاردة المجنونة والهائجة على مياه التايمز. بثبات كنّا نقترب منهم، ياردة بعد ياردة. وفي سكون الليل كان يترامى الى مسامعنا صوت آلات زورقهم وهي تنفث البخار وتخشخش. الذي كان واقفاً عند الدفّة لا يزال منحنياً وذراعاه تتحركان وكأنه مشغول، ومن حين الى آخر كان ينظر الينا ويقيس بنظره المسافة التي تفصل بيننا. أخذت المسافة بيننا تتضاءل، فصرخ جونز طالباً منهم التوقف. كنا على مسافة لا تزيد عن حجم أربعة قوارب، والزورقان يتقدمان في أقصى سرعة. كنا في فسحة منبسطة من النهر، باركنغ ليفل من جهة، ومستنقعات بلمستيد المعتمة من الجهة الثانية. وقف الرجل الذي يمسك بالدفة وانتصب أمامنا وأخذ يهزّ يديه المطبقتين وهو يشتم بصوت أجشّ وعال. كان رجلاً طويلاً، قوي البنية، وفيما كان يقف برجلين متباعدتين رأيت أن رجله اليمنى ومن الفخذ حتى الأسفل كانت مجرد عصا خشبية. وعند سماع صراخه الحادّ والغاضب اضطرب سائر الموجودين على متن الزورق، ثم رأيت بوضوح رجلاً أسود صغيراً ـ أصغر رجل رأيته ـ رأسه كبير ومشوّه تغطيه كتلة من الشعر الأشعث والمتشابك. كان هولمز قد تناول مسدسه، وأنا أيضاً استليت مسدّسي بسرعة عند مشاهدة هذا المتوحّش المخيف. كان يلفّ حوله معطفاً فضفاضاً أو بطانية ولم يظهر منه إلّا وجهه الذي كان كافياً ليسرق النعاس من العيون. لم أر من قبل ملامح مرسومة بهذه الوحشية والقسوة. عيناه الصغيرتان تألقتا متّقدتين

بنور داكن، وشفتاه الغليظتان كانتا مرتدّتين لتكشفا عن أسنانه التي كانت تصرّ وتصطكّ بغضب حيوانيّ.

قال هولمز بهدوء: «أطلق النار عليه إذا رفع يده»

كنـا على مسافة قارب منهم ونكاد نمسك بهم. رأيت الرجلين واقفـين بوضـوح، الرجـل الأبيض برجليه المتباعدتين وهو يتابع الشتائم، والقزم المشؤوم بوجهه المرعب وأسنانه الصفراء القوية التي بدت في الضوء الكاشف وهي تصرّ حنقاً وغضباً.

كان من الأفضل لنا أن يقف واضحاً أمامنا. حتى ونحن نراقبه انتزع من تحت ردائه علبة دائرية خشبية صغيرة، تشبه مسطرة المـدرسـة، وأمسكها بأسنانه. انطلقت المسدسات معاً، استدار رافعاً ذراعيه وأطلق سعالاً مخنوقاً قبل أن يقع في الماء، ومن بين التموّجات البيضاء لمحت عينيه المتلئتين حقداً وضغينة. في الوقت نفسه أسرع صاحب الرجل الخشبية الى الدفّة وأدارها بحيث اتجه القارب مباشرة نحو الضفة الجنوبية.

تجاوزنا مؤخّرته ولم يكن يفصل بيننا أكثر من بضعة اقدام. استدرنا وراءه مباشرة، لكن الأورورا كان قد وصل الى الشاطىء. كان المكان مقفراً وموحشاً، وضوء القمر يغمر مساحة واسعة من المستنقعات وبرك المياه الآسنة وأحواض النباتات المتعفّنة. ارتطم الزورق بهدوء بالوحل الذي يغمر الشاطىء، فارتفعت مقدمته وغمر المـاء المؤخرة. قفز المجرم الهارب الى الأرض لكن رجله الخشبية انغـرست مباشرة في التربة الرخوة. وأخذ يتلوّى وهو يبذل جهداً كبيراً دون فائدة، لم يتمكن من أن يخطو خطوة واحدة الى الامام أو الى الوراء، وأخـذ يصرخ في غضب عقيم ويضرب الوحل باهتياج

شديد برجله الأخرى؛ لكن محاولاته كانت تجعل رجله الخشبية تغور أكثر في التربة اللّزجة. وحين وصل بنا الزورق الى الشاطىء وجدناه ثابتاً بإحكام ولم نتمكن من تخليصه إلّا بالقاء حبل حول كتفيه وشدّه الى جانب زورقنا كما لو أنه سمكة مؤذية. سميث الأب، وابنه كانا يجلسان حزينيْن في زورقهما، وانتقلا الى زورقنا بدون اعتراض حين طلب اليهما ذلك. تمّ جذب الأورورا ثمّ ربط باحكام الى مؤخرة زورقنا كان عليه صندوق حديدي يدلّ على براعة الصناعة الهندية. هذا بدون شك هو الصندوق الذي كان يحتوي على كنز عائلة شولتو المشؤوم. لم نجد مفتاحاً، والصندوق كان ثقيلاً فحملناه الى حجرتنا الصغيرة. وفيما كنا نبحر الآن عكس التيار سلّطنا الضوء الكاشف على سطح الماء، لكننا لم نعثر على أثر لذلك القزم ابن الجزيرة. في مكان ما في القاع الموحل والمظلم في عمق التايمز ترقد عظام ذلك الزائر الغريب لشواطئنا.

قال هولمز وهو يشير الى باب الحجرة: «انظروا هنا. لم نطلق مسدساتنا بالسرعة المناسبة». ورأينا سهماً قاتلاً منغرزاً في باب الحجرة الذي كنا نقف أمامه. يبدو أنه مرّ بيننا في اللحظة التي أطلقنا النار فيها. ابتسم هولمز وهو يتأمله وهزّ كتفيه بلا مبالاته المعهودة، لكنني أعترف بأنني أصبت بالرعب من الموت المخيف الذي كان قريباً جداً منا في تلك الليلة.

-١١-

كنز آغرا العظيم

جلس السجين في الحجرة مقابل الصندوق الحديديّ الذي فعل الكثير لأجله وانتظر طويلاً ليضع يده عليه. لوّحت الشمس بشرته. وبدا الاستهتار في عينيه، امتلأت قسمات وجهه الضارب الى الحمرة بشبكة من خطوطٍ وتجاعيد تدلّ على الحياة القاسية التي عاشها في العراء، في ذقنه الملتحية نتوء بارز يشير الى أنه رجل لا يتراجع بسهولة عن هدفه. كان في الخمسين من عمره أو ما يقارب ذلك، ذلك أن الشيب غزا شعره الأسود المتجعّد بكثافة، وجهه وهو مرتاح ليس مزعجاً، مع أن حاجبيه وذقنه العدائية تعطي وجهه، كما رأيت مؤخراً، تعبيراً مخيفاً إذا أُثير غضبه. إنه الآن جالس بيديه المقيدتين على حضنه، ورأسه تدلى على صدره، وهو يتأمل بعينيه القويتين والمتألقتين الصندوق الذي كان السبب في كلّ أعماله الشريرة. وبدا لي أن ملامحه القاسية تعكس أساه لا غضبه، وحين نظر اليّ مرة شعرت ان في عينيه رغبة بالمسايرة

قال له هولمز وهو يشعل سيجاراً: انا آسف يا جوناثان سمول لأن الأمر انتهى على هذا النحو».

أجاب بصدق: «وأنا أيضاً. لا أعتقد بأنني سأفلت من التهمة

ولكنني أقسم لك بالكتاب المقدس أنني لم أرفع يدي في وجه السيد شولتو، ذلك الوحش الجهنّمي الصغير، تونغا، هو الذي أطلق عليه أحد سهامه الملعونة، لم تكن لي يد في الموضوع يا سيدي، لقد ضربت ذلك الشيطان الصغير ضرباً مبرحاً من أجل فعلته. لكنّ الخطأ كان قد وقع ومن المستحيل اصلاحه».

قال له هولمز: «تفضّل سيجاراً، ومن الأفضل أن تتناول جرعة من قنينتي لأنّ ثيابك مبتلّة، لكن كيف توقعت أن رجلاً صغيراً وضعيفاً كهذا الرجل الأسود يستطيع أن يتغلّب على السيد شولتو ويحتجزه في الفترة التي كنت فيها تتسلّق الحبل؟».

- «أنت تعرف ما حدث وكأنك كنت هناك يا سيدي، الحقيقة أنني تمنيت ان أجد الغرفة خالية. كنت أعرف عادات البيت جيداً، وفي ذلك الوقت كان السيد شولتو ينزل عادة ليتناول عشاءه. لن أترك في هذه المسألة أية أسرار، لأن افضل دفاع أستطيع القيام به عن نفسي هو قول الحقيقة فقط لو أن الأمر يتعلّق بالرائد العجوز كنت هجمت عليه بقلب مرتاح. وما كنت سأفكّر في ضربه بالسكين اكثر مما افكر بتدخين هذا السيجار. لكن اعتباري متواطئاً في مقتل الشاب شولتو هو لعنة قاسية، فأنا لم يسبق لي أن اختلفت معه أبداً».

- «أنت الآن بتصرّف السيد أتلناي جونز من سكوتلاند يارد، وهو سيصطحبك الى بيتي وهناك سأطلب منك سرداً حقيقياً لما حدث. ومن الأفضل أن تقول كلّ ما عندك. أعتقد انني أستطيع أن أثبت بأن السمّ سريع الفعالية وأن الرجل فارق الحياة قبل وصولك الى الغرفة».

ـ «هذا صحيح. ولم أتلق في حياتي صدمة كتلك التي تلقيتها حين وصلت الى النافذة ورأيته مكشراً ورأسه مائل على كتفه. اصابتني قشعريرة يا سيدي. وكدت أقتل تونغا على عمله الشنيع هذا لولا أنه تسلّق بعجلة الى العلية لذلك ترك وراءه عصاه وبعض اسهمه ايضاً، كما قال لي، وهي التي ساعدتك على تتبع اثرنا؛ لكن كيف تمكّنت من متابعة بحثك فهذا لا أستطيع تكهّنه. وأنا لست حاقداً عليك الآن، لكنّ ما اصابني غريب فعلاً». وأضاف بابتسامة مريرة: «أنا الذي يحقّ لي امتلاك نصف مليون جنيه، اقضي النصف الأول من حياتي في تشييد حاجز لوقاية المرفأ في آندمان، ويبدو أنني سأقضي النصف الآخر في حفر مصارف المياه في دارتمور. كان يوماً ملعوناً يوم التقيت بالتاجر أشميت وعرفت بوجود كنز آغرا، الذي كان لعنة على كلّ من اقتناه. اشميت مات مقتولاً، والرائد شولتو عاش في حالة رعب وشعور بالذنب، وأنا سأعيش مستعبداً مدى الحياة».

في تلك اللحظة دخل علينا أتلناي جونز بوجهه العريض وكتفيه الضخمتين وقال. «جلسة عائلية ممتعة. أعتقد أنني سأتناول جرعة من القنينة يا هولمز. حسناً نستطيع تبادل التهنئة فيما بيننا. من المؤسف أننا لم نقبض على الآخر حيّاً، ولكن لم تكن لدينا الخيار في ذلك. وأنت يا هولمز يجب أن تعترف بأننا لحقنا بالأورورا بفارق لحظات وذلك بعدما أعطى زورقنا أقصى امكانياته».

قال هولمز: «لكنّ النتيجة سارّة في النهاية وأنا بالطبع لم أكن أعرف أن الأورورا زورق سريع الى هذا الحدّ»

ـ «يقول سميث أنه من أسرع الزوارق الموجودة، وأنه لو كان

معه رجل آخر يساعده لم نكن لننجح في اللحاق به. وهو يقسم بأنه لم يكن يعرف شيئاً عن قضية نوروود».

صرخ السجين قائلاً: «إنه بالفعل لا يعرف شيئاً، ولا حتى كلمة واحدة. لقد وقع اختياري على زورقه لما سمعته عن سرعته. ونحن لم نخبره شيئاً، ووعدناه بمبلغ مغرٍ عند وصولنا الى السفينة الكبيرة، الإزميرالدا في غرايفسند، التي كانت ستحملنا الى البرازيل».

- «في حال ثبت لدينا أنه لم يرتكب ذنباً لن يتعرّض لأية عقوبة. نحن سريعون في القبض على المتهمين، لكننا لسنا سريعين في إدانتهم».

كان الاستماع الى جونز المغرور ممتعاً وهو يمنح نفسه الحقّ في تبنّي العملية التي حصلت منذ قليل. ومن الابتسامة التي ارتسمت على وجه شرلوك هولمز عرفت أنه أدرك مغزى حديث جونز.

قال جونز: «سنصل بعد قليل الى جسر فوكسهول، وهناك ستنزل يا دكتور واتسون ومعك صندوق الكنز. لا داعي لأقول لك أنني أتحمل مسؤولية خطيرة بالسماح لك بذلك. هذا اجراء شاذّ، هناك اتفاق وسوف ينفّذ. لكن واجبي يحتّم عليّ أن أرسل شرطياً لمرافقتك بما أنك تحمل هذه الوديعة الثمينة. سوف تستقلان عربة أليس كذلك؟».

- «أجل سنستقلّ عربة».

- «من المؤسف أن المفتاح ليس معنا لوضع قائمة جرد

بالموجودات. سوف تضطر لكسر القفل. أين هو المفتاح يا سيد سمول؟».

قال سمول باختصار: «إنه في قاع النهر».

ـ «همّ! لا داعي للدخول في متاعب لا فائدة منها. لقد سبّبت لنا ما يكفي من المشقّة. لكنني لا أظن يا دكتور، أنني محتاج الى أن أنبهك لكي تكون حذراً، عد بالصندوق الى بايكر ستريت حيث ستجدنا بانتظارك ومن هناك نذهب الى المركز».

نزلت عند جسر فوكسهول ومعي الصندوق الحديدي الثقيل ويرافقني شرطي لطيف ومؤنس. وبعد ربع ساعة وصلت بنا العربة الى منزل السيدة سيسيل فورستر، بدت الخادمة مندهشة من تلك الزيارة المتأخرة، فقالت لنا أن السيدة فورستر ستمضي السهرة خارج البيت وأنها على الأرجح ستتأخر، لكن الآنسة مورستان تجلس في قاعة الاستقبال. دخلت الى القاعة والصندوق في يدي وتركت الشرطي المتفهّم في العربة.

كانت تجلس قبالة النافذة المفتوحة ترتدي ثوباً شفّافاً أبيض اللون، يزينه قماش وردي عند الرقبة وعلى الخصر، كانت ترتاح في مقعدها يغمرها ضوء مصباح خافت وأشعته النحيلة تهتزّ على وجهها البديع، وتترك مسحة من اللمعان المعدني الباهت على خصلات شعرها الغزير والمرتّب بعناية. ذراعها الأبيض تدلّى على جنب المقعد، ومن طريقة جلوسها وتعابير وجهها بدت مستغرقة في حالة مكتئبة، وقفت بسرعة عند سماعها صوت وقع قدميّ، وتلونت وجنتاها في الحال بتورّد مشرق من المفاجأة والسرور معاً.

قالت: «سمعت العربة وهي تتوقف. اعتقدت أن السيدة فورستر

عادت باكراً، لكنني لم اتخيّل ابداً انك انت القادم، اية اخبار حملت معك؟».

قلت لها: «إنني أحمل اليك ما هو أفضل من الأخبار». ووضعت الصنـدوق على الطاولة محـاولاً متـابعة الحديث بمرح وسعادة لأخفي الحزن في قلبي· «إنني أحمل اليك ما هو افضل من أخبار العالم كلّه؛ أحمل اليك ثروة».

نظرت الى الصندوق وسألت ببرود واضح· «هذا هو الكنز إذاً؟».

ـ «أجل، هذا هو كنز آغرا العظيم. نصفه لك والنصف الآخر لتاديوس شولتو. سيحصل كلّ منكما على مئتي ألف من الجنيهات. تصـوّري ذلك! انــه يعــادل عشرة آلاف جنيــه كدخــل سنــوي، ستصبحين واحدة من السيدات الأكثر ثراء في انكلترا. أليس هذا رائعاً؟».

أعتقد أنني بالغت في تمثيل الفرح وانها اكتشفت نبرة خداع وأنا انقل اليها تهنئتي؛ رأيت حاجبيها يرتفعان قليلاً وهي تحدّق فيّ باستغراب. قالت: «الفضل يعود اليك في هذه الثروة».

ـ «لا، لا. ليس لي ولكن لصديقي شرلوك هولز. فأنا لن أنجح في التصميم على اقتفاء أثر كان مرهقاً حتى لموهبته التحليلية الفذّة. والحقيقة أننا كدنا نضيعه في اللحظة الأخيرة».

ـ «أرجوك يا دكتور واتسون اجلس وأخبرني بكل ما حدث».

نقلت لها بايجاز الأحداث التي تلاحقت منذ رأيتها آخر مرة. طريقة هولز الجديدة في البحث، واكتشاف مكان الأورورا، وظهور

أتلناي جونز، ومغامرتنا المسائية، والمطاردة العنيفة في نهر التايمز. استمعت الى تلك المغامرات فاغرة فاها وبدت الدهشة في عينيها حين أخبرتها عن السهم الذي كاد يصيب واحداً منا تغيّر لونها وكاد يُغمى عليها.

أسرعت بمسح وجهها بالماء فقالت: «أنا على ما يرام؛ إنها مسألة عابرة. إنها صدمة عنيفة لي أن أعرف بأنني عرّضت صديقين لي لخطر رهيب».

قلت لها: «كلّ شيء انتهى الآن. ولم يكن الأمر مهماً الى هذا الحدّ، لن أخبرك بتفاصيل مزعجة أخرى، ولنتحدث في أمور أخرى. ها هو الكنز، هل هناك ما هو أفضل منه؟ حصلت على الإذن لإحضاره إليك لاعتقادي بأنك ترغبين في القاء النظرة الأولى عليه».

قالت: «هذه لا شك أهم رغبة لديّ». لكن صوتها كان خالياً من اللهفة، كأنها افترضت أنه لا يليق بها أن تبدي لامبالاتها بغنيمة كلّفت ثمناً باهظاً للحصول عليها.

قالت وهي تنحني فوق الصندوق: «يا له من صندوق جميل! هذا من صنع هندي على ما أظن؟».

ـ «أجل إنه من بناريس التي تشتهر بتصنيع المعادن».

قالت وهي تحاول رفعه. «وهو ثقيل جداً! يبدو أن الصندوق وحده قيّم. أين هو المفتاح؟».

ـ «سمول رماه في مياه التايمز. سأستعين بقضيب النار لفتحه».

كان مشبك القفل سميكاً وعريضاً على هيئة تمثال بوذا الجالس أدخلت القضيب في زاوية المشبك وأدرته الى الخارج كالرافعة،

فانفتح المشبك بطقطقة عالية. رفعت غطاء الصندوق بأصابع مرتجفة، فأصابنا الذهول أنا والآنسة مورستان لأن الصندوق كان فارغاً!

لا عجب من ثقل وزنه لأنه كان مصنوعاً من طبقة معدنية بسماكة انش واحد من كلّ الجهات. كان ضخماً ومتيناً وجميل الصنع كأي صندوق مزخرف يصنع لكي توضع فيه الأشياء الباهظة الأثمان، لكننا لم نجد بداخله قطعة واحدة من المعادن أو جوهرة، كان فارغاً تماماً.

قالت الآنسة مورستان بهدوء: «لقد ضاع الكنز».

سمعت كلماتها وأدركت ما تعنيه وأزيح عن صدري همّ كبير. لم أكن أعرف مدى التعاسة التي سببها لي كنز آغرا إلى أن تخلّصت منها أخيراً. كنت بلا شك أنانياً ومخطئاً وصديقاً خائناً، لكنني لم أكن أفكر سوى في أن الحاجز الذهبيّ لم يعد يفصل بيننا.

«الشكر للّه!» صرخة انطلقت من أعماق قلبي. نظرت إليّ بابتسامة سريعة ومتسائلة وقالت: «لماذا تقول ذلك؟».

قلت وأنا أمسك يدها التي لم تحاول سحبها: «لأنك قريبة مني ثانية. لأنني أحبك يا ماري، حباً صادقاً ومخلصاً، لأن هذا الكنز وهذه الثروة، منعاني من الكلام. والآن بعد زوالهما أستطيع أن أعبّر لك عن مدى حبّي، لذلك قلت: الشكر للّه.

قالت هامسة وأنا أقرّبها مني: «وأنا أيضاً أقول الشكر للّه». وهكذا في تلك الليلة أدركت أن الكنز لم يضع بل أننا عثرنا عليه.

-١٢-

قصة جوناثان سمول الغريبة

كان الشرطي رجلاً صبوراً فلقد تركته ينتظرني فترة طويلة في العربة، وحين عدت اليه بالصندوق الفارغ اكفهرّ وجهه وقال بكآبة: «ضاعت المكافأة! بدون نقود لا يدفعون لنا شيئاً. عمل هذه الليلة كان سيعود عليّ وعلى سام براون بمبلغ لا بأس به لو أن الكنز موجود».

قلت له: «السيد تاديوس شولتو رجل غني وهو سيكافئكما سواء كان الكنز موجوداً أم لا».

لكنّه هزّ راسه متضايقاً وقال: «هذه قضية مريبة، وهذا هو رأي السيد أتلناي جونز أيضاً».

ولقد تبيّن أن قوله هذا كان صحيحاً لأن ملامح المفتش خلت من كلّ تعبير وأنا أعرض عليه الصندوق الفارغ في بايكر ستريت كان هولمز والسجين والمفتش قد وصلوا الى البيت منذ قليل، لأن الخطة تغيّرت بعد أن توجّهوا الى مركز للشرطة لتقديم تقرير قبل المجيء الى البيت. ظلّ صديقي جالساً بهدوئه المعهود، فيما بدا سمول متبلّد الحسّ ورجله الخشبية مكوّمة بجانب رجله السليمة. وحين تقدمت منه بالصندوق الفارغ أسند ظهره وضحك عالياً

قال اتلناي جونز غاضباً: «هذا من تدبيرك يا سمول».

قال مبتهجاً: «أجل، لقد وضعته حيث لن تقدروا على الوصول اليه ابداً. هذا كنزي، وإذا كنت عاجزاً عن التمتع بالغنيمة فانني سأبذل قصارى جهدي كي لا يتمتع بها أحد سواي. قلت لكم أن لا أحد له الحق في الحصول على هذا الكنز ما عدا ثلاثة رجال موجودين في معتقل في جزيرة أندمان وأنا.

أعرف الآن أنني لن أستفيد منه وهم أيضاً لن يستفيدوا منه. كنت اتصرف لأجلي ولأجلهم، فنحن كنّا دائماً عصابة الأربعة، اعتقد أنهم كانوا سيطلبون مني أن افعل ما فعلت وان ارمي الكنز في مياه التايمز بدلاً من ان يأخذه هذا او ذاك من ابناء شولتو أو موريستان. نحن لم نخدع آشميت من اجل اثراء هؤلاء. سوف تجدون الكنز حيث يوجد المفتاح وتونغا الصغير، حين أدركت أن زورقكم سيلحق بنا وضعت الغنيمة في مكان أمين. لن تحصلوا على اية روبية اليوم».

ردّ اتلناي جونز بحزم: «أنت تخدعنا يا سمول. لو انك أردت فعلاً أن تلقي بالكنز في الماء لكنت ألقيت بالصندوق وما فيه فهذا أسهل لك».

قال سمول بذكاء وهو مائل على جنبه: «يكون رميه أسهل عليّ، ويكون العثور عليه من جانبكم اسهل أيضاً. الرجل الفذّ الذي تمكن من الوصول اليّ يستطيع أيضاً رفع صندوق حديديّ من قاع النهر. لكن المجوهرات الآن مبعثرة على مسافة خمسة أميال تقريباً، وهذه مهمة أصعب.

تألمت كثيراً عندما أقدمت على ذلك، كدت اصاب بالجنون حين

رأيتكم تطاردوننا. لكن لا فائدة من التباكي. عرفت فيما مضى سعادة الحياة ونحسها، وتعلّمت الّا أبكي على أمل ضاع».

قال له المفتش: «هذا موضوع خطير يا سمول. فلو ساعدت العدالة بدلاً من إعاقة اجراءاتها كما فعلت، ستحصل على فرصة أفضل يوم محاكمتك».

ردّ السجين السابق بغضب. «العدالة! يا لها من عدالة! لمن هذا الكنز إذا لم يكن لنا؟

أين العدالة في أن اعطيه لأشخاص لم يكسبوه.

اسمع كيف كسبته! عشرون سنة طويلة في ذلك المستنقع وما فيه من أمراض الحمّى، أعمل طوال النهار تحت أشجار المنغروف، وطوال الليل أنام مقيّداً بالسلاسل في أكواخ السجن القذرة، أحتمل لسعات البعوض وأعاني من الملاريا، ومن رجال الشرطة السود الذين كانوا يميلون لتنفيس غضبهم بالانتقام من كلّ رجل أبيض يجدونه أمامهم. هكذا كسبت كنز آغرا.

أنت تحدثني عن العدالة، ولكنني لا أحتمل الاحساس بأن يتمتع غيري بالكنز وأنا الذي دفعت ثمنه!

إنني افضّل أن أشنق مرات عديدة، أو أن أصاب فجأة بسهم من سهام تونغا، على أن أعيش في زنزانة وأعرف أن شخصاً آخر مرتاح في قصره ينعم بالمال الذي يجب أن يكون مالي».

خلع سمول قناع الرزانة وتتابعت كلماته بسرعة وغضب، كاد الشّرر يتطاير من عينيه، والقيد الذي يكبّل يديه يُحدث قعقعة كلّما حرّك يديه من شدة انفعاله. أدركت حين شاهدته ولمست حدّة

ضراوته أن الرائد شولتو لم يتملكه الرعب من شيء لا مبرّر له أو لا يعرفه إلا عندما عرف ان السجين المخدوع كان يلاحقه.

قال هولمز بهدوء: «أنت تنسى أننا لا نعرف شيئاً عن تلك الفترة، واننا لم نسمع مشكلتك ولا نستطيع أن نحدّد إلى أيّ مدى كانت العدالة أساساً إلى جانبك».

ـ «حسناً ياسيدي، لقد كنت لطيفاً معي، بالرغم من أن الفضل يعود اليك بوجود هذا القيد في يديّ. لكنني لا أحمل ضغينة مما جرى، كل شيء تمّ علانيـة وبشكل مستقيم، وإذا كنت ترغب في سماع قصّتي فأنا لا ارفض رغبتك. ما سأقوله لك هو حقيقة أمام اللّه، سأقوله لك بالتفصيل، شكراً لك، ضع الكأس هنا بجانبي وأنا سأتناول الشراب حين أشعر بجفاف في حلقي.

«أنا من منطقة ورسترشاير، ولدت بالقرب من برشور. أعتقد انك ستجد مجموعة من عائلة سمول لا تزال تسكن في تلك المنطقة الآن. فكـرت مراراً في الذهـاب الى هناك، لكنني بصراحة لم أكن موضع فخر للعائلة، وأشكّ في ان اقربائي يفرحون لرؤيتي، كانوا مؤمنين بالله ومستقيمين في سلوكهم، وهم مزارعون متواضعون، معروفون ومحترمون من الجميع، فيما كنت اميل الى التنقّل؛ وحين بلغت الثامنة عشرة تورطت في مشكلة بسبب فتاة ولم يكن امامي للتخلص منها سوى الالتحاق باحدى فرق المشاة، تيرد بافز، التي كانت في طريقها الى الهند، وبذلك لم أعد أسبّب لأهلي المزيد من المتاعب.

«لكنني ادركت أنه ليس لدي استعداد للعمل العسكريّ تعلّمت خطوة الإوزّة وطريقـة حمل بندقية «المسكيت». وفي احدى المرات

ومن شدّة غبائي نزلت لأسبح في مياه نهر الغانج. لحسن الحظّ كان زميلي العريف جون هولدر يسبح في الوقت نفسه، وكان من أفضل السبّاحين في فرقتنا. وفيما كنت أسبح هاجمني تمساح وقطع رجلي اليمنى كما يفعل الجرّاح الماهر، من فوق الركبة مباشرة. ومن أثر الصدمة والنزيف أصبت بالاغماء وكنت سأغرق بالطبع لو لم يمسكني هولدر ويسبح بي الى الشاطىء. أمضيت خمسة أشهر في المستشفى بعد تلك الحادثة، وحين تمكنت من الخروج برجل خشبية مربوطة الى فخذي وجدت نفسي معاقاً ومُسرّحاً من الجيش وغير صالح للقيام بأيّ عمل.

كنت، كما تستطيع أن تتوقع، سيء الحظّ في تلك الفترة، أعرج لا فائدة منه ولم أكن بعد قد بلغت العشرين، لكن تبيّن لي فيما بعد أن محنتي كانت في الحقيقة نعمة خفية. أحد أصدقاءالكولونيل في الكتيبة التي كنت أحد جنودها، أتى الى المنطقة للعمل في زراعة شجر النيّلة، وكان السيّد آبيل هوايت بحاجة الى مشرف يتولّى شؤون العمّال ويحثّهم على مواصلة العمل. وسأختصر لك قصة طويلة، فالكولونيل كان مهتماً بي بعد الحادثة، وعمد الى تزكيتي بإصرار لهذه الوظيفة، وطالما أن العمل يتمّ معظم الوقت على ظهر الحصان فإن رجلي لم تكن تشكّل عائقاً مهماً، لأن القسم المتبقي من الفخذ كان كافياً للإمساك بالسرج بإحكام. كان عليّ التجوّل في المزرعة لمراقبة الرجال أثناء عملهم وأن أبلّغ عن المتكاسلين. كان الأجر جيداً والمسكن مريحاً وشعرت بأنني على استعداد لتمضية بقية عمري في زراعة شجر النيلة.

«كان السيد آبيل هوايت لطيفاً جداً، وكان يزورني أحياناً في

كوخي الصغير لنتحدث وندخّن معاً، لأن ذوي البشرة البيضاء يشعر الواحد منهم بالودّ تجاه الآخر في بلاد بعيدة وهو شعور غير موجود هنا.

«لكن الحظ لم يقف إلى جانبي فترة طويلة. كانت بلاد الهند هادئة وآمنة كما تبدو هنا «ساري» أو «كنت»، وفجأة وبدون إنذار بدأت الاضطرابات وانطلق مائتا ألف من البائسين السود يعيثون في الأرض فساداً. أنتم بالتأكيد تعرفون ما حدث ـ أكثر مني فأنا لا أجيد القراءة. لا أعرف سوى ما رأيته بعيني. كانت مزرعتنا في مكان يدعى «موترا» بالقرب من حدود المقاطعات الشمالية الغربية. وفي كلّ ليلة كانت النيران المتصاعدة من البيوت الريفية تضيء السماء، وفي كلّ يوم كانت مجموعات من الأوروبيين تمرّ عبر أرضنا مع النساء والأطفال في الطريق الى آغرا وهي أقرب مكان تتواجد فيه فرقة من الجيش. كان السيد آبيل هوايت رجلاً عنيداً فأقنع نفسه بأن الأمر مبالغ فيه وأن الهدوء سيعود بنفس السرعة التي انتكست فيها الأوضاع. كان يجلس على الشرفة يتناول شراباً مسكراً ويدخن سيكار الشّيروت والمنطقة تشتعل فيها نيران العنف. وبالطبع اخترنا البقاء معه، بالاضافة إليّ كان هناك داوسون وزوجته وهو الذي يتولّى شؤون الحاسبة والادارة. وفي أحد الأيام حصل الانهيار التام، كنت في مزرعة بعيدة وفي طريق العودة الى البيت في المساء شاهدت كتلة مرمية في قعر وادٍ صغير، فنزلت لأتبيّن ما هي وصعقت حين رأيت جثة السيدة داوسون وقد قطعتها مجموعة من ابن آوى ومن الكلاب البريّة وكادت تلتهمها. على مسافة غير بعيدة كان داوسون مستلقياً على وجهه وقد فارق الحياة وفي يده مسدس

فارغ، وكان أربعة من الهنود السبّاهي المجنّدين في الجيش بجواره جثثاً هامدة، كبحت لجام حصاني وأنا حائر في أيّ اتجاه أسير؛ وفي تلك اللحظة رأيت دخاناً كثيفاً يتصاعد من كوخ آبيل هوايت والسنة اللّهب بدأت تشق طريقها عبر السطح. أدركت أنني لم أعد أستطيع شيئاً من أجل صاحب العمل، وأنني سوف أضحّي بحياتي إذا تدخّلت فيما يحدث. ومن مكاني كنت أرى مئات الأشرار السود وهم يرتدون ستراتهم الحمراء، يرقصون ويصرخون حول البيت المشتعل. بعضهم أشار إليّ وسمعت أزيز رصاصتين بقربي: فانطلقت مسرعاً عبر حقول الأرزّ ووصلت في تلك الليلة الى داخل أسوار آغرا الآمنة.

«لكنه تبيّن لي فيما بعد أنه لم يكن هناك أمان فعليّ حتى في آغرا. فالبلاد كلّها تشبه خليّة النحل، وحيث كان أفراد الجيش يلتقون في كتائب صغيرة فقد كانوا يسيطرون فقط على المساحة التي يستطيعون حمايتها بسلاحهم؛ خارج هذا النطاق كانوا مجرد مشرّدين بؤساء. كانت معركة الملايين ضدّ المئات؛ والفظيع في الأمر أن الذين يقومون بالثورة هم متمردون سود من مشاة وفرسان أو في سلاح المدفعية، لقد كانوا رجالاً نحن انتقيناهم، ودرّبناهم وعلمناهم كيفية استخدام أسلحتنا وكيف ينفخون أبواقنا. في آغرا كانت فرقة «الغداريين» ثيرد بينغال، وبعض السّيخ وفرقتان من الفرسان وسريّة مدفعية. تم تشكيل فرقة من المتطوّعين من المستخدمين والتجّار وانضممت اليهم بالرغم من رجلي الخشبية. خرجت فرقتنا لمواجهة الثوّار في شاهغونغ وذلك في بداية شهر تموز واستطعنا إجبارهم على التراجع، لكنّ ذخيرتنا نفدت فاضطررنا للتراجع الى المدينة.

«لم تكن تصلنا سوى الأخبار السيئة ـ وهذا ليس غريباً فلو نظرتم الى الخارطة لوجدتم أن منطقتنا كانت في وسط الأماكن التي تسودها الاضطرابات. لوكناو كانت أفضل وتبعد عنا حوالي مئة ميل شرقاً، كاوبنور أيضاً كانت تبعد المسافة نفسها جنوباً. ومن حولنا لم يكن هناك سوى التعذيب والقتل والاغتصاب.

«مساحة مدينة آغرا كبيرة، وهي تعجّ بالمتعصّبين وعبّاد الشيطان المخيفين من كلّ جنس. وكان أفراد فرقتنا يضيعون في الأزقّة الضيقة والملتوية، فاجتاز بنا قائدنا النهر وجعل من حصن آغرا القديم مقرّاً له. لا أعرف ما إذا كان أحدكم قد قرأ أو سمع عن هذا الحصن التاريخيّ، إنه مكان غريب فعلاً ـ ومع أنني زرت في السابق أماكن عجيبة إلّا أن هذا الحصن كان الأكثر غرابة بينها. إنه هائل بمقاييسه، فالسياج الذي يطوّقه يخترق مساحات كبيرة من الأرض. هناك قسم حديث نزلت فيه فرقتنا بالنساء والأطفال والمخازن وكلّ الأمتعة الأخرى ولم يمتلىء المكان بنا. لكن هذا القسم ليس مهماً بالنسبة لحجم القسم القديم، الذي لم يدخل اليه أحد، والذي كان متروكاً للعقارب وحشرات أم الأربعة والأربعين، تسرح في قاعاته المهجورة وممراته الملتوية ودهاليزه الطويلة التي تنعطف الى الداخل أو إلى الخارج، وكان من السهل أن يضيع أي شخص في داخلها، لأجل ذلك نادراً ما كان يجرؤ أحدنا على التجول فيها، مع أن فرقة مزوّدة بالمشاعل كانت تجوب هذه الدهاليز مستكشفة من حين إلى آخر.

«النهر يجري بمحاذاة الحصن، وهو يحمي واجهته، ولكن على جوانبه من الجهة الخلفية توجد أبواب كثيرة لا بدّ من حراستها

وهذا يشمل بالطبع الجانب القديم من الحصن والجانب الحديث منه حيث كانت تقيم فرقتنا، كان عندنا نقص في عدد الرجال، فلم يكن لدينا ما يكفي لحراسة المبنى ولإطلاق النار عند الحاجة ولذلك كان من المستحيل أن نؤمن حراسة شديدة على البوابات التي لا تحصى. حاولنا حلّ المشكلة بأن جعلنا وسط الحصن مركزاً رئيسياً للحرس وتركنا كلّ بوابة برعاية رجل أبيض مع اثنين أو ثلاثة من السكان المحليّين.

«تمّ اختياري لحراسة باب صغير مهجور في الجهة الجنوبية الغربية وذلك خلال بضع ساعات أثناء اللّيل. كان بإمرتي فارسان من السّيـخ، وكانت لديّ أوامر باطلاق رصاصة من بندقيتي إذا اقتضى الأمر لتصل قوة مساعدة في الحال من المركز الرئيسيّ، وبما أن المركز كان على بعد حوالي مائتي خطوة والمسافة بيننا كناية عن متاهة من الممرات والدهالين، لم أكن واثقاً من أنهم سيصلون في الوقت المناسب أو أن لهم فائدة في حال تعرّضنا لهجوم فعليّ.

«كنت فخـوراً بقيـادة تلك الفـرقة الصغيرة لأنني مجنّد قليل التجربة وذو رجل خشبية أيضاً، مرت ليلتان وأنا أتولّى الحراسة مع المجندين البنجابيين. كانا طويلين، بملامح شرسة، أحدهما يدعى محمـد سنج والآخر عبدالله خان، كلاهما يجيد القتال وكانا قد حملا السلاح ضد الانكليز في تتسيليان ولآه. يجيدان الانكليزية الى حدّ ما، لكنني مع ذلك لم أتمكن من مصـادقتهما، كانا يفضلان الوقوف معاً والتحدث طوال الليل بلغة السيخ الغريبة، كنت أقف خارج البـوابـة أتأمل النهر العريض ومجراه الملتوي، والأضواء

المتلألئة في المدينة الكبيرة. صوت قرع الطبول، وخشخشة الطبول الصغيرة، وصرخات وصيحات الثوار السكارى من الأفيون والخمر، كل ذلك كان يذكّرنا بوجود الخطر على الضفة المقابلة، وكلّ ساعتين كان الملازم المسؤول عن الحرس يقوم بجولة على كلّ المراكز ليتأكد من سلامة الجميع.

«الليلة الثالثة كانت شديدة الظلام ولم يهدأ فيها المطر. كان الوقوف في البوابة عدة ساعات مزعجاً في ذلك الطقس. حاولت مراراً أن أحمل المجندين من السّيخ على تبادل الحديث معي، لكنني لم أنجح في ذلك. عند الثانية صباحاً مرّت مجموعة التفتيش وقطعت لعدة دقائق رتابة الليل. وبعد تأكّدي من أن مرافقيّ لن يشتركا في أي حديث معي، تناولت غليوني ووضعت بندقيتي بجانبي لأشعل عود الثقاب؛ في تلك اللحظة انقضّا عليّ، أحدهما استولى على بندقيتي وصوّبها إلى رأسي، فيما وضع الآخر سكيناً كبيرة على رقبتي وأقسم انه سوف يغرزها في أعماقي إذا تحركت.

«اعتقدت للوهلة الأولى انهما من الثوار، وأن تصرّفهما هو بداية لهجوم مدبّر. قلت في نفسي إذا تمكن الهنود السّباهيّين من الاستيلاء على البوّابة سيقع الحصن في أيديهم وسيعذّبون النساء والأطفال كما فعلوا في كاوبنور. ربما تعتقدون أيّها السادة أنني ابتكر قضية لأحمي نفسي، لكنني أؤكد لكم انني حين فكّرت في ذلك، ومع أنّ حدّ السكين كان يلامس رقبتي، فتحت فمي لأطلق صرخة ولو أخيرة لأنبّه الحرس الآخرين. الذي كان يمسك بي أدرك نواياي، وفيما كنت أستجمع قوتي لأصرخ همس في أذني قائلاً: «لا داعي للضجّة. الحصن في أمان. لا يوجد ثوار كلاب في هذه الجهة

من النهر». بدا الصدق واضحاً في صوته، وعرفت انني إذا رفعت صوتي سوف أموت. حين رأيت التهديد في عينيه البنّيتين، آثرت الانتظار بصمت لأعرف ماذا يريدان منّي.

«قال الأطول والأقوى، وهو الذي يدعى عبدالله خان: «اسمعني يا صاحبي، إمـا أن تكون الآن معنا أو تصمت الى الأبد. الأمر شديـد الخطورة ولا مجال للتردّد. إما أن تكون معنا قلباً وروحاً وتـقسم على صليب المسيحيّـين بذلك، أو أن جثتـك ستلقى في الخندق، وننضم الى اخوتنا في الجيش الثوري، لا يوجد حلّ وسط. ماذا تختار؟ الحياة أم الموت؟ نعطيك ثلاث دقائق لتقرّر، فالوقت يمرّ بسرعة وكلّ شيء يجب أن يتمّ قبل مرور الدورية ثانية».

«قلت: «كيف أستطيع أن أقرّر وأنت لم تقل لي ما الذي تريده منّي؟ لكنني أؤكـد لك مبـاشرةً أنه إذا كان لذلك علاقة بسلامة الحصن فأنا أرفض التعامل معك، وتستطيع أن تغرز سكّينك في جسدي».

«قـال لي: «الأمر لا يتعلّق بالحصن. نحن نطلب منك فقط أن تحقق الأمنية التي تأتي بأهل بلدك إلى هذه الأرض نطلب منك أن تصبح ثرياً. إذا اخترت أن تصبح واحداً منّا الليلة سنقسم لك على هذه السكين وباليمين الثلاثيّ الذي لم يسبق لواحد من السّيخ أن نقضـه، إننـا نعـطيـك حصتك المشروعة من الغنيمة، ربع الكنز سيصبح ملكاً لك. لا نستطيع أن نقدّم ما هو أعدل من ذلك».

«سألته: «لكن ما هو هذا الكنز؟ إنني مستعد للثراء مثلكما لو تقولان لي فقط كيف أتمكن من تحقيق ذلك».

«قال: «سوف تقسم إذاً بعظام والدك، وشرف والدتك، والصليب الذي تؤمن به، الّا ترفع يداً أو تتفوّه بكلمة ضدّنا، من الآن فصاعداً».

«أجبته: «أقسم بذلك، شرط الا يكون الحصن معرضاً للخطر».

ـ «إذاً سأقسم مع رفيقي على اعطائك ربع الكنز الذي سيتم تقسيمه بالعدل علينا نحن الأربعة».

«قلت: «لا يوجد سوى ثلاثة».

ـ «لا، يجب أن يحصل دوست أكبر على حصّته. أستطيع أن أخبرك القصّة ونحن بانتظارهم. قف عند البوابة يا محمد سنج وأعطنا إشارة عند اقترابهم. حقيقة الأمر هي كما يلي، يا صاحبي، وأنا أخبرك لأنني أعرف أن الإفرنجيّ يحترم يمينه وأنك الآن موضع ثقة لو كنت هندوسياً كاذباً، وأقسمت بكلّ الآلهة في المعابد المزيّفة، كان دمك سيسيل على حد السكين وجثتك ستُلقى في الماء، لكن السّيخ يعرفون الانكليز، والانكليز يعرفون السّيخ. استمع جيداً إذاً لما سأقوله لك.

«في المنطقة الشمالية أمير هندي (راجا) يملك ثروة كبيرة مع أن أرضه ليست شاسعة. ورث الكثير عن والده، وجمع أكثر من ذلك بنفسه، لكنه لم يكن كريماً بطبعه بل يفضل تكديس الذهب على انفاقه، حين بدأت الاضطرابات صادق الأسد والنمر في الوقت نفسه ـ اي السباهيّين والمسؤولين الأجانب عن «الشركة». لكنه انتبه أخيراً الى أن الوقت حان للانتقام من الرجال البيض لأنه عبر المنطقة كلّها لم يكن يسمع إلّا انباء موتهم والقضاء عليهم. وبسبب

طبيعتـه الحـريصة وضع خطته بحيث أنه مهما تبدلت الظروف يمكنه الحصول على نصف الكنز على الأقل. ما كان فضة وذهباً أخفاه في سراديب قصره، والأحجار الكريمة الباهظة الثمن وأجمل اللآلىء التي كانت بحـوزتـه وضعها في صندوق حديديّ، وأرسل الصندوق مع خادم أمين متنكر في زيّ تاجر، إلى حصن آغرا حيث يجب أن يمكث الى أن تهدأ الحالة. إذا نجح الثوار يستعيد أمواله، وإذا استعادت «الشركة» نفوذها يكون قد أنقذ مجوهراته. وبعد أن قسّم مدّخـراته على هذاالنحو انضمّ الى السبّاهيين وهم الفريق الأقوى على حدود إمارته. وانتبه يا صاحبي، أنه بعد قرار الأمير هذا أصبحت ممتلكاته من حقّ أولئك الذين كانوا أوفياء لنضالهم الوطنيّ.

«أمـا التـاجر المتنكّر الذي يسافر باسم آشميت فهو الآن في مدينـة آغـرا ويحـاول الوصول الى الحصن. وقد اصطحب معه كمرافق سفر أخي في الرضاعة ويدعى دوست أكبر وهو يعرف السرّ وقد وعدنا دوست أكبر أنه سيقوده الى باب جانبيّ في الحصن، وهو بالتحديد الباب الذي نقف عنده. سيصلان بعد قليل وسأكون مع محمد سنج في انتظارهما. المكان منزوٍ ولن يعلم أحد بمجيئهما، التاجر آشميت سيموت والكنز سنتوزعه علينا نحن الأربعة. ماذا تقول في ذلك يا صاحبي؟».

«حياة الانسان تبدو في ورسترشاير شيئاً عظيماً ومقدساً، لكن الأمر يختلف في مكان محاط بالدم والنيران، وحين يكون المرء قد اعتاد على ملاقاة الموت في كلّ لحظة. لذلك كانت حياة آشميت أو موته مسألة بسيطة بالنسبة لي، لكن موضوع الكنز أثار اهتمامي

وأخذت أفكّر فيما أستطيع أن أحققه في بلدي، وكيف سيندهش أقـربـائي حين يرون ذلك الصبيّ عديم النّفـع الذي رجع إليهم بجيوب مليئة بقطع المويدور(*) الذهبية.

«كنت قد اتخذت قراري، لكن عبدالله خان اعتقد أنني ما زلت متردّداً فتابع يقول محاولاً اقناعي: «انتبه يا صاحبي إن القائد إذا قبض على هذا الرجل فانه سيشنقه أو سيطلق النارعليه، وستأخذ الحكومة مجوهراته بحيث لن يستفيد منها أحد. وبما أننا نحن سنقتله لماذا لا نتولّى الجزء الثاني أيضاً؟ ستكون المجوهرات إما في حوزتنا أو في خزائن «الشركة». سيحصل كلّ واحد منّا على مبلغ يجعله غنياً ويرفع شأنه، ولن يعلم أحد بالأمر، لأننا هنا منقطعون عن الآخرين. هل هناك ما هو أفضل من ذلك؟ قل إذاً يا صاحبي، هل أنت معنا أم أن علينا أن نعتبرك عدواً؟».

«قلت له: «أنا معكم قلباً ونفساً».

«ردّ وهو يناولني بندقيتي: «حسناً، أنت ترى بأننا نثق بك، لأن وعدك مثل وعدنا لا تراجع عنه. علينا الآن فقط أن ننتظر وصول أخي والتاجر».

«سألته: «هل يعلم أخوك بما تنوون فعله؟».

ـ «الخطة خطته، هو الذي وضعها، لنخرج الآن ونشارك محمد سنج في الحراسة».

«كنـا في بداية الفصل الممطر، وفي الخارج كان المطر لا يزال

(*) المويدور: عملة ذهبية برتغالية قديمة

ينهمـر دون انقـطاع. سُحُب داكنـة وكثيفة كانت تغطي السماء وكانت الرؤية صعبة. أمام البوابة خندق مائي عميق لكنّ الماء كان قد جفّ تقريباً في عدة أماكن ولم يكن اجتيازه صعباً. شعرت بأنني في موقف غريب أنتظر مع هذين البنجابيين رجلاً يجيء لملاقاة حتفه.

«فجـأة لمحت التمـاعـة طفيفـة لفانوس في الجهة المقابلة من الخندق. اختفت خلف أكوام المتاريس ثم عادت لتظهر ثانية وتتقدم ببطء باتجاهنا.

«قـلت: «هـا هـما!».

«قـال عبـدالله هامساً: «يجب أن توقفه كالمعتاد يا صاحبي. لا تدعه يخاف، أرسلنا للتأكد منه ونحن سوف ننفذ الباقي دون أن تفـارق أنت مركـز حراستـك هنـا. جهّز الفانوس لكي نكون متأكّدين أنه الرجل المطلوب».

«كان الضوء المتأرجح يقترب، يقف قليلاً ثم يتابع طريقه، حتى تراءى لي شخصان في الجهة المقابلة من الخندق، تركتهما ينزلان فيـه ويخوضان في المياه والوحل ويصعدان قليلاً باتجاه البوّابة، عندئذٍ أمرتهما بالتوقّف، فسألتهما بصوت خافت: «مـن القادم؟».

«جـاء الرد: «صـديقـان». نزعت الغطاء عن الفانوس ورفعته نحوهما. كان الأول من السّيخ ضخم الجثة وله لحية سوداء طويلة تكـاد تلامس حزامـه. لم أر من قبـل رجلاً له هذه القامة إلاّ في الاستعراضات. وبجانبه كان شخص قصير وممتلىء يضع عمامة كبيرة صفراء على رأسه يحمل صرّة يغطّيها شال. كان يرتجف من

الخوف، ويداه تنتفضان كأنه مصاب بالملاريا، وكان يلتفت ذات اليمين وذات اليسار بعينيه الصغيرتين اللامعتين كأنه فأر تجرأ وخرج من حفرته. أصابتني قشعريرة حين فكّرت بقتله، لكنني تخيّلت الكنز فشعرت بأن قلبي صار صلباً كحجر صوّان. حين رأى وجهي الأبيض ارتاح قليلاً وأسرع يتقدم نحوي.

«قال بصوت لاهث: «إنني أطلب حمايتك يا صاحبي. حمايتك للتاجر المسكين آشميت. لقد قطعت منطقة راجبوتانا كي ألجأ الى حصن آغرا، وتعرضت للنهب والضرب والتعذيب لأنني صديق «الشركة». هذه ليلة مباركة لأنني اجد نفسي ثانية في أمان ـ أنا وما أملك».

«سألته. «ماذا تحمل في هذه الصرّة؟».

«أجاب: «صندوق حديدي، يضم أشياء قليلة تخصّ العائلة لا قيمة لها بالنسبة للآخرين لكنني سأحزن كثيراً لو فقدتها. إنني لست متسوّلاً، وسوف أكافئك، أيها الشاب، وأكافىء قائدك أيضاً إذا وافق على حمايتي».

«لم أعد أجرؤ على متابعة الحديث معه، والاستمرار في تأمّل وجهه الممتلىء والخوف يزيد من صعوبة قتله ببرود. من الأفضل الاسراع في التنفيذ.

«قلت لرفيقيّ: «خذاه الى المركز الرئيسيّ للحرس». أحاط به الرجلان، ومشى العملاق خلفهم ودخل الجميع البوّابة المظلمة. شعرت أن الموت يطوّقني ومكثت عند البوابة والفانوس في يدي.

«كنت أسمع وقع خطواتهم في الممرات الموحشة؛ وفجأة توقفوا

وسمعت شجاراً تلته بعد قليل مجموعة ضربات ملأتني رعباً خطوات تتقدم مسرعة نحوي وصوت لهاث رجل يركض. حملت فانوسي باتجاه الممرّ الطويل ورأيت الرجل البدين يركض بسرعة مذهلة والدم يسيل من وجهه، ووراءه مباشرة كان رجل السِّيخ الضخم بلحيته السوداء يقفز كأنه نمر ويحمل سكيناً يلتمع نصلها في يده. كان يقترب من التاجر الذي لو تمكّن مِن عبور البوّابة الى الخارج فانه كما أعتقد سيتمكن من انقاذ نفسه. رقّ قلبي له، لكن فكرة الكنز ردّت إليّ القسوة والمرارة. أطلقت رصاصة بين رجليه فيما كان يركض، فوقع وتقلّب مرتين على الأرض كأنه أرنب مصاب. وقبل أن يحاول الوقوف على رجليه انقضّ عليه العملاق وغرز سكينه مرتين في جنبه. لم يصدر عن الرجل أي أنين أو أدنى حركة بل ظلّ متمدّداً بسكون في المكان الذي وقع فيه. أعتقد أنه ربما كسر رقبته أثناء وقوعه.

«أنتم تلاحظون أيها السادة أنني أنفّذ وعدي وأسرد عليكم كلّ التفاصيل تماماً كما حدثت سواء كان ذلك في صالحي أم لا».

سكت قليلاً ليتناول بيديه المكبّلتين الكأس الذي قدمه له هولمز. أعترف أنني رأيته بأفظع صورة ليس فقط من أجل تلك الجريمة الوحشية التي شارك في تنفيذها، لكن بسبب أسلوبه في الحديث وما بدا فيه من وقاحة ولامبالاة. لا أعرف ما ستكون عقوبته لكن عليه ألّا يتوقّع منّي أي تعاطف معه. كان شرلوك هولمز وجونز جالسين يضع كل منهما يديه على ركبتيه ويصغي بانتباه شديد لكنّ الاشمئزاز تجلّى في ملامحه. ربما يكون سمول لاحظ ذلك لأن صوته وأسلوبه حملا بعض الجرأة وهو يتابع حديثه.

قال: «لا شك أن كلّ ما حدث كان سيئاً. لكنني أودّ أن أعرف كيف كان عدد كبير من الأشخاص سيتصرفون لو أنهم كانوا مكاني. هل يرفضون حصتهم من هذه الغنيمة حين يدركون أن رقابهم ستقطع عقوبة لهم. وبالنسبة لجريمة القتل فان حياة التاجر كانت مقابل حياتي أنا منذ دخوله الى الحصن. لو أنه تمكّن من الفرار كان الأمر كلّه سينكشف، وسيكون نصيبي المحاكمة العسكرية والاعدام رمياً بالرصاص؛ لأن الناس لا يكونون متسامحين في أوقات مماثلة».

قال له هولمز رغبة في الاختصار: «تابعْ قصتك».

«حسناً؛ حملناه معاً عبدالله وأكبر وأنا، وكان وزنه ثقيلاً مع ان قامته قصيرة، تركنا محمد سنج عند البوابة للحراسة. وحملناه الى مكان كان الرجال السِّيخ قد أعدّوه مسبقاً. مشينا في دهليز متعرّج قادنا الى قاعة كبيرة فارغة جدرانها المشيّدة بالآجر آخذة في الانهيار. كانت أرض القاعة غائرة في احدى الزوايا كأنها قبر طبيعي. وتركنا جثة آشميت في تلك الحفرة بعد أن غطيناها بحجارة الآجرّ. ثم عدنا ثانية الى مكان الكنز.

«كان الصندوق على الأرض حيث تركه آشميت عندما تعرّض للهجوم الأول. الصندوق هو نفسه الذي ترونه الآن على الطاولة. بجانب المسكة المحفورة كان مفتاح يتدلّى بشريط حريريّ؛ فتحنا الصندوق ورأينا في ضوء الفانوس مجموعة من المجوهرات كتلك التي كنت أقرأ عنها أو أحلم بها وأنا صبيّ صغير في الكاتالوغ؛ لمعانها يبهر الأبصار، وبعد أن متّعنا أعيننا بهذا المشهد الرائع أفرغنا الصندوق ودوّنا المحتويات في لائحة. كانت هناك مئة وثلاث

وأربعون ماسة من أفضل صنف بصفائها وبريقها، وبينها واحدة أطلق عليها، على ما أظنّ، اسم: «المغوليّ العظيم»، ويقال أنها الماسة الثانية من حيث الحجم في العالم وبالاضافة الى ذلك سبع وتسعون زمردة في غاية الروعة، ومئة وسبعون ياقوتة بعضها كان صغير الحجم؛ وأربعون حجراً من العقيق الأحمر، ومئتان وعشرون من الياقوت الأزرق، وواحد وستون من اليشب، وكمية كبيرة من حجر البريل الأخضر والجزع وعين الهرّ والفيروز وغيرها من الأحجار الكريمة، التي لم أكن أعرف أسماءها في ذلك الحين، مع أنني صرت حسن الاطلاع في هذا المجال. وبالاضافة الى كلّ هذا كانت في الصندوق حوالي ثلاثمئة من أفضل اللآلىء، اثنتا عشرة من بينها كانت تزيّن تاجاً ذهبياً صغيراً وبالمناسبة هذه المجموعة الأخيرة من اللآلىء أخذت من الصندوق ولم تكن موجودة فيه حين استرجعته.

«بعد أن فرغنا من احصاء ثروتنا أعدنا المجوهرات الى داخل الصندوق، الذي حملناه الى البوّابة كي نريه لمحمد سنج. وقمنا نحن الأربعة بتجديد عهدنا بأن يساعد الواحد منا الآخر وأن يكون مخلصاً في اخفاء السرّ. اتفقنا على وضع الصندوق في مكان أمين الى أن يستتبّ الأمن في البلاد، ثم نقتسمه بالتساوي بيننا. لم يكن هناك مبرر لاقتسامه مباشرة، لأن اكتشاف مجوهرات بهذه القيمة مع واحد منا يثير الشكوك، وليس هناك مكان منزوٍ في القسم الحديث من الحصن يستطيع واحدنا اخفاء حصّته فيه. لذلك عدنا بالصندوق الى القاعة التي وضعنا فيها الجثة، وعمدنا الى انتزاع عدة حجارة من جدار لا يزال متماسكاً الى حدّ ما ووضعنا الصندوق داخل التجويف. انتبهنا جيداً للمكان، وفي اليوم التالي

رسمت أربع خرائط ووضعت اسماؤنا نحن الأربعة على كل منها، لأننا اقسمنا بأن يعمل واحدنا من اجل المجموع وأن لا يحاول الاستفادة من اية فرصة تتاح له، هذا العهد أستطيع أن اضع يدي الآن على قلبي واقسم بأنني كنت دائماً وفياً له.

«حسناً، لا داعي أيها السادة لكي أسرد لكم ما حدث من اضطرابات في الهند. بعد أن سيطر ويلسون على دلهي وتمكّن السيد كولين من تحرير لوكناو، بدأت تصل الى المنطقة وحدات جديدة من الجيش، وبصعوبة تمكّن «نانا صاحيب» من الوصول الى الحدود بسلام، ومجموعة نقلت جواً بإمرة الكولونيل غريثد إلى آغرا وطردت الثوار منها. اخذ الهدوء يعود تدريجياً الى البلاد وبدأنا نحن الأربعة نتأمل ان الوقت سيحين قريباً لكي يأخذ كلّ منا حصته وينعم بها في امان. لكنّ احلامنا كلّها زالت عندما تمّ القبض علينا بتهمة قتل آشميت.

«وهذا ما حدث: عندما سلّم الراجا مجوهراته إلى آشميت فإنه فعل ذلك لأنه يثق به. لكنه مع ذلك كان ميّالاً الى الشكّ كسائر سكان تلك المنطقة الشرقية، فعمد الى ارسال خادم له وموضع ثقته التامة لكي يتتبع آشميت ويتجسّس عليه. وقد أمره الراجا بأن لا يتركه مطلقاً يغيب عن ناظريه، فتتبع خطواته وكأنه ظلّه. كان يسير خلفه في تلك الليلة ورآه يدخل بوابة الحصن. اعتقد في البداية أنه لجأ إلى الحصن، وتقدّم هذا الخادم بدوره في اليوم التالي بطلب الى المسؤولين للسماح له بالبقاء في داخل الحصن؛ لكنه لم يعثر على آشميت. ارتاب للأمر وأخبر احد الضباط باختفاء آشميت، الذي نقل الأمر بدوره الى القائد. بدأت عملية بحث سريعة، وتم العثور

على الجثة. لذلك حين اعتقدنا أن الخطر زال، أُلقي القبض علينا نحن الأربعة وبدأ التحقيق معنا بتهمة القتل ـ ثلاثة منّا لأننا كنا واقفين عند البوّابة تلك الليلة، والرابع لأنه معروف بأنه كان يرافق القتيل. ولم يشر أحد الى المجوهرات أثناء محاكمتنا، لأن الراجا عُزل عن منصبه وطرد من البلاد. ولم يكن أحد غيره يعرف شيئاً عنها. أمّا الجريمة فكانت واضحة وكنا جميعاً مشتركين فيها. الرجال السِّيخ الثلاثة حكم عليهم بالأشغال الشاقة مدى الحياة، وحُكم عليّ بالموت، لكنّ عقوبتي خُففت فيما بعد الى عقوبة الآخرين.

«كان وضعنا صعباً للغاية، أرجلنا مكبّلة والاحتمال ضئيل جداً في أن نتمكن من الخروج ثانية، وكلّ واحد منا يحتفظ في أعماقه بسرّ كان سيغيّر مجرى حياته لو أن الأمور سارت على ما يرام. كان من الصعب علينا أن نحتمل رفسات وصفعات الحراس الحقيرين، وأن يكون الأرز طعامنا والماء شرابنا، وتلك الثروة كانت موجودة في الخارج تنتظر من يسعد بها. كدت أصاب بالجنون، لكنني تمالكت نفسي وأخذت أنتظر الفرصة الملائمة.

«وأخيراً تصوّرت أن الفرصة سنحت فعلاً. تمّ نقلي من آغرا الى مادراس ومنها الى جزيرة بلير في جزر أندمان. كان عدد الموقوفين البيض قليلاً في تلك المستوطنة، ولأنني كنت حسن السلوك صرت خلال فترة قصيرة رجلاً مميّزاً. أعطوني كوخاً في هوب تاون، موقع صغير على منحدر جبل هارييت، ولم يكن أحد يضايقني في معظم الأحيان. كان المكان موحشاً ومليئاً بأمراض الحمّى، وخلف حدود تلك الفسحة في الغابة كانت المنطقة تعجّ بالمتوحشين الذين كانوا على استعداد لقتل أيّ منا بأسهمهم المسمومة حين يتسنى لهم

ذلك.. كنا نحفر الخنادق ونزرع البام (نوع من البطاطا) ونقوم بعدة أعمال أخرى بحيث نقضي يومنا كلّه في العمل؛ وفي المساء أيضاً لم يكن لدينا وقت طويل للراحة، ومن بين عدة أمور أخرى تعلّمت تحضير العقاقير مع الطبيب الجرّاح، واحتفظت بجزء من تلك المعلومات؛ كنت طوال الوقت أبحث عن فرصة ملائمة للهرب، لكنّ الجزيرة كانت على بعد أميال من أية أرض أخرى، وتلك البحار لا رياح فيها تقريباً. لذلك كان الهرب في غاية الصعوبة.

«كان الدكتور سومرتن شاباً مرحاً ومقامراً، وكان يجمع عدداً من الضباط الشباب في غرفته كل مساء للعب القمار. والعيادة، حيث كنت أحضّر العقاقير كانت ملاصقة لغرفة الجلوس وبينهما نافذة صغيرة؛ وكنت عند شعوري بالوحدة أطفىء المصباح وأقف عند النافذة أستمع الى حديثهم وأراقبهم وهم يلعبون. وكنت مولعاً بلعب الورق أيضاً وأجد متعة في مراقبة الآخرين وكأنني أشارك في اللعب معهم. كان هناك الرائد شولتو، والنقيب مورستان، والملازم بروملي براون الذين كانوا يتولون قيادة الجيش هناك، بالاضافة الى الطبيب واثنين أو ثلاثة من المسؤولين عن السجن، وكانوا بارعين يميلون الى اللعبة المضمونة. مجموعة صغيرة تتسم بالحميميّة وتختار دائماً البعد عن الأنظار.

«لكن ما لفت نظري أن الجنود كانوا يخسرون دائماً والموظفين المدنيين يربحون. أنا لا أقول انهم كانوا يغشون، لكنهم كانوا متمرسين في لعب الورق منذ مجيئهم الى الجزر، ويعرفون جيداً طريقة لعب كلّ واحد منهم، أما الجنود فكانوا يلعبون لتمضية الوقت ولا يهتمون كثيراً بالربح. وليلة بعد ليلة كان هؤلاء يزدادون فقراً، ويزداد بالتالي اصرارهم على متابعة اللّعب. والرائد شولتو كان

وضعه سيئاً، فهو كان يلعب في البداية بالأوراق النقدية والقطع الذهبية، ثم أخذ يلعب بالكمبيالات وبمبالغ كبيرة. كان يربح أحياناً ويزداد ولعاً باللعب لكن الحظ ما يلبث أن يعاكسه ويعود الى الخسارة طوال النهار كان يتجوّل في أنحاء المعتقل يصرخ بغضب، ثم أخذ يشرب الكحول بكثرة مما ترك أثراً سيئاً على صحته

«وذات ليلة كانت خسارته أكبر من الليالي الأخرى. كنت في كوخي حين رأيته والنقيب مورستان في طريقهما الى مسكنهما. كانا صديقين حميمين لا يفترقان أبداً. والرائد كان يتكلّم عن خسارته، فقال لصديقه وهما يمران أمام الكوخ: «انتهى كلّ شيء يا مورستان. أنا مضطر لتقديم استقالتي، صرت رجلاً فقيراً».

«قال الآخر وهو يربّت على كتفه: «هذا هراء، يا صديقي! عرفت بدوري فترة صعبة ولكن...» هذا كلّ ما سمعته، لكنه كان كافياً لكي أبدأ بالتفكير في خطة.

«بعد ذلك بيومين شاهدت الرائد شولتو يتمشّى على الشاطىء فاستفدت من الفرصة وتقدمت منه لأتحدث معه. قلت له: «أتمنى لو تساعدني أيها الرائد شولتو».

«قال وهو يحمل سيجار الشيروت في يده: «حسناً يا سمول ماذا تريد؟».

«قلت: «أردت أن أسألك يا سيدي عن الشخص المناسب الذي أستطيع أن أسلمه كنزاً دفيناً، فأنا أعرف مكان كنز يساوي نصف مليون جنيه، والأفضل أن أقوم بتسليمه الى السلطات المختصّة، ربما يخفّف ذلك من عقوبتي.

«قـال بلهفـة وهو ينظر إليّ بحدّة ليتبيّن ما إذا كنت أمازحه: «نصف مليون يا سمول؟».

ـ «أجـل يا سيـدي ـ مجوهرات ولآلىء، والغريب أن صاحبه الفعلي خارج على القانون ولا يستطيع المطالبة به، فهو بالتالي ملك لمن يأخذه».

ـ «الحكومة يا سمول» وتابع متلعثماً: «الحكومة». لكنه قال ذلك بنبرة متردّدة فأيقنت أنه وقع تحت تأثيري.

«سألته بهدوء. «أتعتقد يا سيدي إذاً أنني يجب أن أدلي بما لديّ من معلومات للّواء القائد؟».

ـ «حسناً، حسناً، يجب الّا تستعجل في القيام بأيّ عمل قد تندم عليه فيما بعد، أخبرني قصة هذا الكنز يا سمول، أعطني الوقائع».

«أخبرته القصة بكاملها مع بعض التعديل بحيث لا يتمكن من التعرّف على الأماكن، وحين انتهيت رأيته يقف جامداً مستغرقاً في التفكير وأدركت من ارتعاش شفته انه يعاني من صراع داخلي.

«قال لي أخيراً: «هذه مسألة في غاية الأهمية يا سمول. لا تتفوّه بكلمة واحدة أمام أي شخص آخر، وسأقابلك مرة ثانية قريباً».

«وبعد يومين أتى الى كوخي مع رفيقه النقيب مورستان في عتمة الليل.

«قال لي. «أريدك أن تخبر النقيب مورستان بقصتك يا سمول».

«فأعدت رواية الأحداث كما اطلعته عليها من قبل.

«قال لصديقه· «تبدو صحيحة وجديرة بالمتابعة، أليس كذلك؟»·

«أحنى النقيب موريستان رأسه بالموافقة، فأضاف الرائد «اسمعني يا سمول. لقد تحدثت مع صديقي حول الأمر، وتوصلنا الى أن سرّك هذا لا يخصّ الحكومة، بل هو أمر شخصيّ، وأنت بالطبع تتمتع بالحقّ في التصرّف به كما يحلو لك. والسؤال الآن هو، ما الثمن الذي تطلبه؟ ربما نرغب في اتخاذ موقف إذا استطعنا الاتفاق على الشروط».

«حاول أن يتحدث بأسلوب باردٍ وبلا مبالاة، لكنّ الانفعال والطمع كانا واضحين في نظرته.

«أجبته، محاولاً بدوري أن أبدو هادئاً لكنني كنت أخفي انفعالي مثله: «بالنسبة لذلك أيها السيدان، لا يود أيّ رجل في مثل وضعي إلّا أن يعقد صفقة واحدة: أريدكما أن تساعداني على استعادة حريتي، ومساعدة رفاقي الثلاثة كذلك. عندئذ تصبحان شريكين لنا ونعطيكما حصة خامسة تقتسمانها فيما بينكما».

«قال: «حصة خامسة؟ ليس هذا العرض مغرياً».

«قلت له: «سينال كل واحد منكما خمسين ألفاً».

ـ «لكن كيف سنتمكن من مساعدتكم على الفرار؟ أنت تعلم جيداً أن هذا مستحيل».

«أجبته: «على الاطلاق. لقد فكرت في الأمر بدقّة. إن الصعوبة تكمن في أننا عاجزون عن الحصول على مركب ملائم للرحلة، وعن مؤونة تكفينا للوقت المطلوب. هناك الكثير من اليخوت الصغيرة والمراكب الشراعية في كلكوتا أو مادراس وهي تفي بالغرض إذا

استأجرتما لنا واحداً نستقلّه أثناء الليل وننزل في أي مكان على الساحل الهندي؛ هذا هو شرطنا لعقد اتفاق معكما».

«قال «ولكن ماذا لو نساعدك أنت فقط».

اجبته: «نحن الأربعة أو لا أحد، هذا ما أقسمنا عليه، الأربعة يجب أن يكونوا دائماً معاً».

«قال لصديقه: «أترى يا موريستان، سمول هذا رجل مخلص، إنه لا يتهرّب من أصدقائه وأعتقد أننا نستطيع أن نثق به».

«اجابه الآخر: «هذه القضية بشعة، لكن المال كما تقول سينقذ رتبة كلّ منا ويبقى لنا فائض منه».

«قال الرائد: «حسناً يا سمول، سنحاول اللقاء بكم، لكن يجب أن نتأكد أولاً من صحة روايتك. اخبرني عن مكان الكنز وسوف أطلب الإذن للذهاب الى الهند في المركب الذي يأتي كلّ شهر الى الجزيرة، وذلك من اجل التحقّق من الأمر».

«قلت له وأنا أزداد برودة فيما هو يزداد اندفاعاً: «ليس بهذه السرعة، يجب أن أحصل على موافقة رفاقي الثلاثة. فلقد قلت لك إما أن نكون نحن الأربعة أو لا أحد».

«قال مقاطعاً: «هذا هراء! ما دخل ثلاثة من السود في اتفاقنا؟».

«قلت له. «سواء كان لونهم أسود أم أزرق، إنهم معي وسنبقى جميعاً معاً».

«وانتهى الأمر في اجتماعٍ ثانٍ تمّ بحضور محمد سنج وعبدالله خان ودوست أكبر. تحدثنا في الموضوع وتوصلنا أخيراً الى اتفاق.

كان علينـا أن نزوّد كلاً من الضابطين بخريطة حول مكان وجود الكنز في حصن آغرا، ونشير بعلامة الى مكان الصندوق في الحائط. وسيذهب الرائد شولتو الى الهند ليتأكد من روايتنا فإذا عثر على الصندوق يتركه في مكانه ثم يرسل الى الجزيرة يختاً صغيراً مزوّداً بالمؤن الضرورية للرحلة، وهذا سيرسو قبالة جزيرة ركلاند وعلينا نحن أن نصل اليه؛ والرائد يعود لممارسة عمله؛ وسيطلب النقيب مورستـان الإذن بالسفر وسيقابلنا في آغرا، وهناك نقتسم الكنز ونعطيه حصته وحصة الرائد شولتو. وكان ختام الإتفاق بأن أقسم الجميع على الوفاء والاخلاص له. سهرت تلك الليلة حتى الصباح وأنا أرسم الخارطتين ودوّنت على كلّ واحدة منهما أسماءنا نحن الاربعة أي عبدالله وأكبر ومحمد وأنا.

«لا شك أنكم تعبتم أيهـا السـادة من هذه القصـة الطويلة، وأعرف أن صديقي جونز ينتظر بفارغ الصبر وضعي في زنزانة. سأحاول أن أختصر قدر المستطاع. ذهب النذل شولتو الى الهند لكنه لم يعد ثانية. وبعد فترة قصيرة دلّني النقيب مورستان على اسمه بين مجموعة من المسافرين الى انكلترا على متن باخرة للبريد وقال لي أنه استقال من الخدمة العسكرية لأن عمه توفي وترك له ثروة. تضايقنا جميعاً من تصرّفه الدنيء، وفي أسرع فرصة ذهب مورستان الى آغرا ووجد، كما توقعنا، أن الكنز مأخوذ فعلاً. ذلك الوغد سرقه كله دون أن يفي بشرط واحد من الشروط التي بعناه السرّ من أجلها. ومنذ ذلك الوقت أخذت أعيش على أمل الانتقام منه؛ كنت أفكر فيه نهاراً وأخطّط له ليلاً. وأصبح هذا الانتقام رغبة طاغيـة ومسيـطرة في أعماقي. لم أكن أهتمّ بالقانون ـ ولا حتى بالمشنقـة، ولم يكن يستحوذ على تفكيري سوى الهروب واللحاق

بشولتو ووضع يديّ حول رقبته، حتى كنز آغرا بدا أمراً صغيراً بالنسبة لعملية شولتو.

«لقد سبق لي أن قرّرت القيام بأمور كثيرة ولم أترك أمراً واحداً لم أنفـذه. لكن سنـوات طويلة ومتعبة مضت قبل مجيء الوقت المناسب لكي أنتقم. قلت لكم بأنني تعلمت بعض الشؤون الطبية، وذات يوم كان فيـه الدكتور سومرتن مريضاً بالحمى، اصطحب عدد من الموقوفين رجلاً صغيراً من سكان الجزيرة عثروا عليه في الغابة، كان مريضاً جداً وقد قصد مكاناً بعيداً عن قومه كي يموت فيه. قررت مساعدته، مع أنه كان يثير الاشمئزاز كأفعى صغيرة؛ وبعد شهرين استعاد صحته وتمكّن من المشي ثانية.. كان شديد الاعجاب بي، ولم يرض بسهولة العودة الى الأدغال، وظلّ من حين لآخر يأتي الى الكوخ، تعلمت منه بعض العبارات في لغته وهذا ما جعله يزداد اعجاباً بي.

«تونغا ـ هذا هو اسمه ـ كان مراكبياً ماهراً ويملك زورقاً واسعاً وكبيراً، وحين وجدته مخلصاً لي ومستعداً للقيام بأي عمل يخدمني فيه، قررت الهرب بمساعدته. أخبرته بخطتي: عليه أن يأتي بزورقه ليلاً الى رصيف قديم غير مراقب وهناك سيجدني في انتظاره، ونبهته بأن يحضر عدداً من ثمار اليقطين المليئة بمياه الشرب والكثير من البام وجوز الهند والبطاطا الحلوة.

«كان تونغا الصغير وفياً ومخلصاً. ولم يسبق لانسان أن عرف رفيقاً بإخلاصه في الليلة المحدّدة كان عند الرصيف في زورقه. لكن بالصدفة كان هناك أحد الحراس وكان شرساً لا يترك فرصة إلّا ويتعمـد فيها إهانتي وجرح مشاعري. وكنت أنوي الانتقام منه

والآن جاءت الفرصة المناسبة، وكأن القدر وضعه في طريقي كي أنفّذ ما نويت عليه قبل مغادرة الجزيرة. كان يقف عند الشاطىء وقد أدار ظهره لي وبندقيته على كتفه. بحثت عن حجر أضربه به على رأسه لكنني لم أجد.

«ثم خطرت في بالي فكرة غريبة وعرفت كيف أجد سلاحاً، جلست في الظلام وأخذت أفكّ رباط رجلي الخشبية، وقفزت ثلاث مرات فوصلت اليه، حمل البندقية يريد إطلاق النار لكنني عاجلته بضربة قوية على رأسه قضت عليه. ووقعت معه لأنني لم أعد قادراً على المحافظة على توازني. وحين تمكنت من الوقوف كان لا يزال مستلقياً بلا حراك. نزلت الى المركب وبعد ساعة كنا قد قطعنا مسافة في البحر. أحضر تونغا معه كل ممتلكاته من أسلحة وآلهة، ومن بين أشياء عديدة كان يحمل حربة من الخيزران، وحصيرة من أوراق جوز الهند استخدمتها كشراع. مرّت عشرة أيام ونحن في عرض البحر ننتظر مرور احدى السفن الكبرى وفي اليوم الحادي عشر استقلّينا سفينة تجارية كانت متوجهة من سنغافورة الى جدّة وعلى متنها حشد من الحجّاج الماليزيين. تمكنت مع طونغا من الجلوس بين الحجّاج الذين كانوا يتمتعون بميزة: انهم يتركون الآخر وشأنه ولا يطرحون عليه أسئلة.

«حسناً، لو أخبركم بالمغامرات التي خضتها مع صديقي الصغير لن تكونوا شاكرين لأنكم ستسمعونني حتى شروق الشمس. انتقلنا من مكان لآخر، وكانت هناك دائماً عوائق تمنعنا من الوصول الى لندن. وطوال الوقت لم أنس هدفي، كنت أحلم بشولتو ليلاً، قتلته مئات المرات في نومي، وأخيراً ومنذ حوالي ثلاث

أو أربع سنوات وصلنا الى انكلترا. لم أجد صعوبة كبيرة في التوصل الى مكان إقامة شولتو وقمت بتحريات لمعرفة ما إذا كان قد باع المجوهرات أم ما زال يحتفظ بها. وتقرّبت من أحد المستخدمين في بيته ليساعدني ـ لكنني لن أذكر اسمه فأنا لا أريد أن أورّط شخصاً آخر معي ـ وعرفت بعد فترة أن المجوهرات لا تزال موجودة. ثم حاولت الوصول اليه عدة مرات، لكنه كان شديد الحذر يحرسه ملاكمان ومعه في البيت ولداه وخادمه الهندي خيتمتغار.

«وعرفت في أحد الأيام أنه في النزع الأخير. أسرعت الى حديقة المنزل وكنت خائفاً أن يفلت من قبضتي هذه المرة؛ رأيته من وراء النافذة مستلقياً على سريره يحيط به ولداه. كنت سأجازف بالدخول وأهاجم الثلاثة معاً، لكنني رأيت فكه يتدلّى وعرفت أنه فارق الحياة. عدت الى غرفته تلك الليلة وفتشت في أوراقه أبحث عن اشارة مدوّنة عن موقع المجوهرات، لكنني لم أجد شيئاً، فعدت أدراجي يملأني الحقد والغضب. وقبل مغادرة الغرفة تخيلت أنني إذا التقيت برفاقي السّيخ ثانية فانهم يفضلون لو أنني أترك دليلاً بإسمنا جميعاً على كراهيتنا له؛ لذلك دوّنت توقيع الأربعة تماماً كما هو على الخارطة وعلقته على صدره. كان من الصعب عليّ أن أراه يدفن بدون ذكرى من الرجال الذين سرقهم وخانهم.

«كنت في تلك الفترة أكسب بعض المال من عرض تونغا المسكين في الأسواق والساحات وتقديمه للناس على أنه متوحش أسود، وهو كان يأكل امامهم اللحم النيء ويرقص رقصة الحرب: وكنا في آخر النهار نجمع كمية لا بأس بها من النقود. كنت لا ازال أتلقّى الأخبار من بونديتشيري لودج ومرت بضع سنوات بدون أي جديد،

سوى أن الولدين كانـا يبحثـان عن الكنز. وأخيراً حدث ما طال انتظاره، فقد تمّ العثور على الكنز. كان مخبأً في القسم الأعلى من البيت في المختبر الكيميائيّ للسيد برتلوميو شولتو. أتيت الى البيت مبـاشرة وألقيت نظرة على المكـان، لكنني لم أستطع الصعود الى العلية برجلي الخشبية. عرفت لاحقاً بوجود باب يفضي الى السطح وأن السيـد شولتو يتناول عشاءه في ساعة معيّنة. فقررت تنفيذ الأمر بمساعدة تونغا، واصطحبته معي في المرة الثانية مع حبل طويل لفّه حول خصره. تسلّق الجدار كأنه قطة، وتمكن بسرعة من الوصول الى الغرفة. لكن برتلوميو شولتو كان لا يزال في غرفته وهذا من سوء حظّه. اعتقد تونغا أنه تصرّف بذكاء عندما قتله لأنني حين وصلت الى الغرفة وجدته يختال متباهياً كأنه طاووس. وقد أصيب بذهـول حين هجمت عليـه بطرف الحبل وأنا ألعنه وألقبه بالقزم المتعطش للدماء. تناولت منه صندوق الكنز وأنزلته من النافذة، ثم نزلت بدوري بعد أن تركت توقيع الأربعة على الطاولة للدلالة على أن المجـوهـرات عادت أخيراً لمن يستحقّها. ثم رفع تونغا الحبل وأغلق النافذة وعاد من حيث أتى.

«لا أعرف ما إذا كان هناك شيء آخر تودّون معرفته. كنت قد سمعت أحـد البحـارة يتحدث عن سرعة زورق سميث البخاريّ الأورورا، فقلت أنه يساعدنا في هربنا. اتفقت مع سميث ووعدته بأن أعطيه مبلغاً كبيراً إذا أوصلنا الى سفينتنا. أحسّ على الأرجح بوجـود خلل ما لكنّـه لم يسـأل وأنا لم أشركه في السر، هذه هي الحقيقـة، وأنـا لم أخبـركم بهـا لتسليتكم، لأنكم أنتم أفشلتم مخطّطي، لكنني أخبركم بها لأنني أعتقد أن أفضل دفاع أقوم به عن نفسي هو ألاّ أخفي شيئاً وأترك العالم كلّه يعرف كم أساء الرائد

شولتو معاملتي وكم أنا بريء من موت ابنه».

قال هولمز: «هذه رواية ملفتة، نهاية ملائمة لقضية مثيرة للغاية، لم أجد في القسم الأخير من القصة أية معلومات جديدة لم أكن أعرفها سوى أنك أحضرت الحبل معك. هذا لم أكن أعرفه. بالمناسبة اعتقدت أن تونغا فقد جميع أسهمه، لكنه أطلق علينا واحداً منها ونحن في الزورق».

ـ «إنه بالفعل فقدها جميعاً ما عدا سهماً واحداً كان لا يزال في قصبة النفخ».

قال هولمز: «آه، بالطبع، لم أفكر في ذلك».

سأله الموقوف بلطف: «هل ترغب في أن أوضّح لك أية مسألة؟».

ردّ هولمز: «لا أعتقد ذلك، شكراً لك».

قال أتلناي جونز: «حسناً يا هولمز، نعرف جميعاً أنك خبير في الجريمة وتستحق معاملة خاصة، لكن الواجب هو الواجب، وأنا قد ذهبت بعيداً في تنفيذ ما طلبته مني أنت وصديقك. ولن أرتاح قبل أن أتأكد من وضع صاحبنا هذا في سجن مقفل. العربة لا تزال في انتظارنا، وهناك شرطيان ينتظران أيضاً في الطابق السفليّ. أنا شديد الامتنان لمساعدتك وسوف تستدعى بالتأكيد للإدلاء بشهادتك في المحكمة. عمتما مساءً».

قال جوناثان سمول: «عمتما مساءً أيها السيدان».

وأشار عليه جونز بأن يخرج قبله وهما يغادران الغرفة وقال: «سأكون حذراً كي لا أتلقّى ضربة من رجلك الخشبية، كما فعلت مع ذلك الحارس في جزر أندمان».

قلت بعد خروجهما، وفيما كنت أدخّن مع هولمز: «حسناً، ها قد انتهت قصتنا، وأعتقد أنها ربما تكون آخر ما يتسنّى لي من خلاله أن أتمعّن في دراسة أسلوبك، فالآنسة مورستان قد شرّفتني بموافقتها على طلبي للزواج منها».

همهم بكآبة ساخرة وقال: «كنت أخاف ذلك، إنني فعلاً لا أستطيع أن أهنئك».

شعرت بأنه جرحني وسألته: «هل لديك أي سبب يجعلك مستاء من اختياري؟».

ـ «على الاطلاق. أعتقد أنها من أجمل الشابات اللواتي التقيت بهن، وقد تكون مفيدة للغاية في عمل كالذي قمنا به. يبدو أنها موهوبة في هذا المجال، وهذا يستدل من طريقتها في المحافظة على خطة حصن آغرا واختيارها لها من بين سائر أوراق والدها. لكن الحب هو نزعة عاطفية، وكل ما هو عاطفي يتناقض مع التفكير المنطقي السليم الذي أضعه فوق كلّ اعتبار. أنا لن أتزوج أبداً، إلّا إذا انحرفت عن قدرتي على التفكير»

قلت له ضاحكاً: «أعتقد أن قدرتي على التفكير سوف تتجاوز هذه المحنة. لكن تبدو متعباً للغاية».

ـ «أجل، أنا أعاني من ردّة الفعل وسأكون مترهلاً مثل السجادة لمدة أسبوع».

قلت له: «غريبة هذه الحالة، التي لو وصفها رجل آخر لقلت عنه أنه كسول، لكنها عندك تتعاقب مع نوبات رائعة من النشاط والحيوية».

بعد اختفاء والدها في ظروف غامضة، كانت الآنسة مورستان تتلقى سنوياً هدية سرّية هي عبارة عن لؤلؤة نادرة ونفيسة. وقد تبين لها فيما بعد ان هناك لغزاً كبيراً وراء مؤامرة تحيط بكنوز «اغرا» قد تهدد حياتها.
استنجدت الآنسة مورستان بخدمات شارلوك هولمز وزميله واتسون للكشف عن هذا اللغز الذي ازداد تعقيداً كلما توسع التحقيق حتى انتهى الأمر الى البحث عن كنز هندي وعن القاتل الذي يوقع جريمته دائماً بكلمة «عصابة الأربعة».

1855131498